

ڪامل ڪيلاني

مدينه النحاس



مدينة النحاس

مدينة النحاس

تأليف
كامل كيلاني

صفحات

<http://www.safahat.org>

موقع صفحات

جميع الحقوق محفوظة للناشر موقع صفحات
(شركة ذات مسئولية محدودة)

إن موقع صفحات غير مسئول عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

ص.ب. ٥٠، مدينة نصر ١١٧٦٨، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٢٧٢٧٤٣١ ٢٠٢ + فاكس: ٢٢٧٠٦٣٥١ ٢٠٢ +

البريد الإلكتروني: safahat@safahat.org

الموقع الإلكتروني: http://www.safahat.org

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لموقع صفحات.
جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2011 Safahat.

All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

٧

الفصل الأول

١٥

الفصل الثاني

١٩

الفصل الثالث

٢٥

الفصل الرابع

٣٣

الفصل الخامس

٤٥

الفصل السادس

٥٥

الفصل السابع

الفصل الأول

(١) هُبُوبُ الْعَاصِفَةِ

هَبَّتِ الْعَاصِفَةُ شَدِيدَةً عَاتِيَةً، وَتَعَالَتْ أَمْوَاجُ الْبَحْرِ هَادِرَةً صَاحِبَةً، تُهَدِّدُ السَّفِينَةَ بِالْغَرَقِ بَيْنَ لَحْظَةٍ وَأُخْرَى، وَاسْتَوْلَى الْخَوْفُ عَلَى رُكَّابِ السَّفِينَةِ وَمَلَّاحِيهَا وَرَبَّانِيهَا، وَخَارَتْ مِنْهُمْ الْقُوَى، وَكَادَ الْيَأْسُ يَسْتَوْلِي عَلَيْهِمْ، لَوْلَا مَا بَعَثَهُ أَمِيرُهُمْ «إِقْبَالُ» الشُّجَاعِ مَنْ أَمَلَ فِي نَفُوسِهِمْ، بِفَضْلِ مَا أُوتِيَ مِنْ ثَبَاتِ قَلْبٍ، وَقُوَّةِ عَزِيمَةٍ، وَبِرَاعَةِ حِيلَةٍ. وَالشُّجَاعَةُ تُعْدي كَمَا يُعْدي الْخَوْفُ، وَتَنْتَقِلُ مِنْ شَخْصٍ إِلَى آخَرَ كَمَا يَنْتَقِلُ الْمَرَضُ. وَكَانَ «إِقْبَالُ» مِنْ أَفْذَاذِ الرِّجَالِ الَّذِينَ تَزِيدُهُمُ الشَّدَائِدُ صَلَابَةً وَقُوَّةً، فَرَّاحٌ يُصْدِرُ إِلَيْهِمْ أَوْامِرَهُ تِبَاعًا — فِي بِرَاعَةٍ وَحَنَكَةٍ وَذِكَاةٍ — حَتَّى كُنْتَبَتْ لَهُمُ السَّلَامَةُ، بَعْدَ أَنْ تَعَرَّضُوا لِلْهَلَاكِ يَوْمَينَ كَامِلَيْنِ، كَانَتْ الْعَوَاصِفُ تُهَدِّدُهُمْ — فِي خِلَالِهِمَا — بِالْغَرَقِ بَيْنَ الْفَيْئَةِ وَالْفَيْئَةِ.

فَلَمَّا جَاءَ الْيَوْمُ الثَّلَاثُ سَكَنَتِ الرِّيحُ الْعَاصِفَةُ، وَهَدَّاتِ الْأَمْوَاجُ النَّائِرَةُ، وَنَجَّتْ سَفِينَةُ الْأَمِيرِ، كَمَا نَجَّتْ سَفَائِنُ أَتْبَاعِهِ وَحَاشِيَتِهِ مِنَ الْغَرَقِ.

(٢) حِوَارُ الْأَمِيرِ وَالرُّبَّانِ

وَمَا إِنَّ تَبَيَّنَ الرُّبَّانُ مَوْقِعَ السَّفِينَةِ مِنَ الْبَحْرِ حَتَّى صَرَخَ مُتَأَلِّمًا، وَقَالَ: «لَقَدْ نَجَوْنَا يَا سَيِّدِي الْأَمِيرِ مِنَ الْغَرَقِ، وَلَكِنَّا لَمَّا نَنجُ مِنَ الْهَلَاكِ.»

فَسَأَلَهُ الْأَمِيرُ: «مَاذَا تَعْنِي؟»

فَقَالَ الرَّبُّ: «لَقَدْ ضَلَلْنَا الطَّرِيقَ؛ فَمَا نَعْلَمُ فِي أَيِّ مَكَانٍ مِنَ الدُّنْيَا طَوَّحَتْ بِنَا الْعَاصِفَةُ؟ وَمَا يَدْرِي أَحَدٌ: أَيُّتَاحَ لِسَفَائِنِنَا (مَرَائِكِنَا) أَنْ تَرْسُوَ عَلَى الْبَرِّ، أَمْ كُتِبَ عَلَيْنَا أَنْ نَقْضِيَ مَا بَقِيَ مِنْ أَيَّامِنَا فِي الْحَيَاةِ هَائِمِينَ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ حَتَّى يَنْفَدَ مَا مَعَنَا مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ فَتَهْلِكَ جُوعًا وَعَطَشًا، بَعْدَ أَنْ نَجُونَ مِنَ الْمَوْتِ غَرَقًا؟»

فَقَالَ الْأَمِيرُ الشُّجَاعُ: «لَا تَجْزَعُ وَلَا يَهِنُ مِنْكَ الْعَزْمُ، فَإِنَّ عِنَايَةَ اللَّهِ الَّتِي يَسَّرَتْ لَنَا طَرِيقَ الْخَلَاصِ مِنْ خَطَرِ الْعَاصِفَةِ، قَادِرَةٌ عَلَى أَنْ تُيسِّرَ لَنَا طَرِيقَ النِّجَاةِ، فَإِذَا كَانَ اللَّهُ — سُبْحَانَهُ — قَدْ كَتَبَ عَلَيْنَا أَنْ نَمُوتَ فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ فَلَا حِيلَةَ لِأَحَدٍ فِيمَا قَضَى اللَّهُ. وَمَا أَجْدَرْنَا أَنْ نُوَجِّهَ الْمَوْتَ — كَمَا نُوَجِّهُ الْحَيَاةَ — بِاسْمِينِ غَيْرِ هَيَّابِينَ وَلَا خَائِفِينَ. وَلَيْسَتْ هَذِهِ أَوَّلُ عَاصِفَةٍ نَلْقَاهَا فِي رِحْلَاتِنَا، وَمَا أَحْسَبُهَا آخِرَ عَاصِفَةٍ تُكْتَبُ لَنَا السَّلَامَةُ — بِإِذْنِ اللَّهِ — مِنْ أَهْوَالِهَا.»



(٣) الرَّاحَةُ بَعْدَ التَّعَبِ

وَهَكَذَا رَدَّ الْأَمِيرُ الشُّجَاعُ الطُّمَائِنَةَ إِلَى قُلُوبِ أَصْحَابِهِ. وَسَارَتْ سَفَائِنُ الْأَمِيرِ تَحْمِلُهُ مَعَ حَاشِيَتِهِ وَجُنُودِهِ فِي الْبَحْرِ عَلَى غَيْرِ هُدَى خَمْسَةَ أَيَّامٍ أُخَرَ. ثُمَّ اسْتَقَرَّتْ فِي الْيَوْمِ السَّادِسِ عَلَى السَّاحِلِ، فَخَرَجَ الْأَمِيرُ وَرِفَاقُهُ إِلَى الْبَرِّ آمِنِينَ شَاكِرِينَ اللَّهَ حَامِدِينَ، وَجَلَسُوا يَلْتَمِسُونَ الرَّاحَةَ مِنْ عَنَاءِ السَّفَرِ، بَعْدَ أَنْ كَابَدُوا فِي رِحْلَتِهِمُ الطَّوِيلَةَ الشَّاقَّةَ مَا كَابَدُوا مِنْ أَهْوَالِ.

وَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِهِمُ الْمُقَامُ رَأَوْا مِنْ دَلَائِلِ الْخِصْبِ وَالْخَيْرِ الْعَمِيمِ مَا مَلَأَ نُفُوسَهُمْ بِهِجَةً وَإِعْجَابًا، حَتَّى خَيَّلَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُمْ حَلُّوا فِي جَنَّةٍ مِنْ جَنَّاتِ الْفِرْدَوْسِ ذَاتِ أَنْهَارٍ وَأَشْجَارٍ، وَرِيَاضٍ تَحْفَلُ بِأَطْيَابِ الثَّمَارِ وَالْأَزْهَارِ!
وَلَبِثُوا أَيَّامًا يَتَرَقَّبُونَ أَنْ يَرَوْا إِنْسَانًا يَسْأَلُونَهُ عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي حَلُّوا بِهِ، فَلَمْ يَجِدُوا أَحَدًا.

(٤) الْمَدِينَةُ الْمَوْصَدَةُ

وَذَا صَبَاحٍ خَرَجَ الْأَمِيرُ يَرْتَادُ تِلْكَ الْأَنْحَاءَ لِيَتَعَرَّفَ شَيْئًا عَنْهَا، فَانْتَهَى بِهِ السَّيْرُ إِلَى جَبَلٍ عَالٍ، فَقَصَدَ إِلَيْهِ، ثُمَّ صَعَدَ فِيهِ، وَمَا زَالَ مُصْعَدًا فِيهِ حَتَّى بَلَغَ قِمَّتَهُ.
فَرَأَى عَلَى مَسَافَةِ قَرِيبَةٍ مِنْهُ سُورَ مَدِينَةٍ عَالِيَةٍ، فَأَيَّقَنَ بِقُرْبِ الْفَرَجِ، وَأَسْرَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ يُخْبِرُهُمْ بِمَا رَأَى. وَكَانَ الْمَسَاءُ قَدْ اقْتَرَبَ، فَبَاتُوا لَيْلَتَهُمْ فِي مَكَانِهِمْ، وَاسْتَأْنَفُوا السَّيْرَ فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِيِ حَتَّى بَلَغُوا زِرْوَةَ الْجَبَلِ، ثُمَّ هَبَطُوا إِلَى سَفْحِهِ الْأَخْرَ، وَاسْتَرَاخُوا يَوْمَهُمْ، مُسْتَأْنَفِينَ فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِيِ سَيْرَهُمْ، فَرَأَوْا عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُمْ مَدِينَةً عَالِيَةَ الْبُنْيَانِ، مُسَيِّدَةَ الْأَرْكَانِ، يُحْفُ بِهَا سُورُ عَالٍ مِنْ كُلِّ جِهَاتِهَا، وَرَأَوْا أَبْوَابَهَا النَّحَاسِيَّةَ مَعْلُقَةً قَدْ أَحْكَمَ رِتَاجُهَا بِالْمَتَارِيْسِ وَالْأَقْفَالِ، فَاسْتَحَالَ الدُّخُولُ إِلَيْهَا، وَوَلَّحَ لَهُمْ فِي أَعْلَى السُّورِ بَرُوجٌ مُحْصَنَةٌ، أَبْوَابُهَا مِنَ النُّحَاسِ، أَتَقَنَّتْ نُقُوشُهَا وَزَخَارِفُهَا أَيَّامًا إِتْقَانًا، فَأَقَامُوا يَوْمَهُمْ يُدَبِّرُونَ الْحِيلَةَ فِي دُخُولِهَا، فَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَى وَسِيلَةٍ تُمْكِّنُهُمْ مِنْ تَحْقِيقِ رَغْبَتِهِمْ.

(٥) السُّلْمُ الْكَبِيرُ

فَأَشَارَ عَلَيْهِمُ الْأَمِيرُ أَنْ يَعْمَلُوا سُلْمًا كَبِيرًا يُسَامِتُ ذِرْوَةَ سُورِهَا الْعَالِي لِئِمَّاكَنَّهُمْ مِنْ فَتْحِ أَبْوَابِهَا، وَتَعَرَّفَ خَبْرَهَا وَعَجَائِبِهَا، وَسُؤَالَ أَهْلِهَا عَنِ اسْمِهَا، وَمَكَانِهَا مِنَ الدُّنْيَا. فَقَالُوا: «نَعْمَ مَا أَشَارَ بِهِ الْأَمِيرُ.»

وَمَا لَبِثُوا أَنْ أَتَمُّوا صُنْعَ السُّلْمِ الْكَبِيرِ، ثُمَّ تَعَاوَنُوا عَلَى رَفْعِهِ حَتَّى أَقَامُوهُ وَالصُّقُوهُ بِالسُّورِ الْعَالِي، فَجَاءَ مُسَاوِيًا لَهُ، كَأَنَّهُ قَدْ عَمِلَ عَلَى قَدِّهِ وَارْتِفَاعِهِ.

(٦) السَّبَّاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ

فَشَكَرَ لَهُمُ الْأَمِيرُ جُهُودَهُمْ وَتَوْفِيقَهُمْ، وَقَالَ: «بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ. لَقَدْ كَلَّلَ اللَّهُ مَسْعَاكُمْ بِالنَّجَاحِ، فَكَأَنَّمَا قَسْتُمْ السُّلْمَ عَلَى ارْتِفَاعِ سُورِ الْمَدِينَةِ.»
ثُمَّ سَأَلَهُمْ: «أَيُّكُمْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْتَقِيَ هَذَا السُّلْمَ الْعَالِي حَتَّى يَبْلُغَ ذِرْوَةَ السُّورِ، ثُمَّ يَحْتَالَ لِنُزُولِهِ إِلَى أَرْضِ الْمَدِينَةِ لِيَفْتَحَ لَنَا مَغَالِيقَ هَذَا الْبَابِ؟»



فَقَالَ أَحَدُهُمْ، وَقَدْ طَمَحَتْ نَفْسُهُ إِلَى الظَّفَرِ بِتَحْقِيقِ رَغْبَةِ الأَمِيرِ: «أَنَا أَصْعَدُ عَلَيْهِ
أَيُّهَا الأَمِيرُ، وَأَتَكْفَلُ بِفَتْحِ أَبْوَابِ المَدِينَةِ.»
فَقَالَ الأَمِيرُ «إِقْبَالٌ»: «اصْعَدْ، بَارَكَ اللهُ فِيكَ.»
فَصَعِدَ الفَارِسُ أَدْرَاجَ السُّلْمِ حَتَّى وَصَلَ أَعْلَاهُ.
وَمَا كَادَ يَرْتَقِي سُورَ المَدِينَةِ، وَتَثَبَّتْ عَلَيْهِ قَدَمَاهُ حَتَّى شَخَّصَ بِيَصْرِهِ إِلَى المَدِينَةِ،
وَصَاحَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «لَبَيْكُ، لَبَيْكُ، لَبَيْكُ، هَا أَنَا ذَا حَاضِرٍ إِلَيْكَ، مَاثِلٌ بَيْنَ يَدَيْكَ.»
ثُمَّ رَمَى بِنَفْسِهِ إِلَى دَاخِلِ المَدِينَةِ مِنْ ذَلِكَ العُلُوِّ الشَّاهِقِ، فَدَقَّتْ عُنُقُهُ، وَأَنْهَرَسَ
لَحْمُهُ وَعَظْمُهُ.

فَقَالَ الأَمِيرُ «إِقْبَالٌ»: «إِذَا كَانَ هَذَا فِعْلَ العَاقِلِ، فَمَاذَا يَصْنَعُ المَجْنُونُ؟ أَمَا وَاللَّهِ
لَيَفْتَنَنَّ أَصْحَابُنَا جَمِيعًا إِذَا اقْتَدَوْا بِفِعْلِ هَذَا الرَّائِدِ الأَحْمَقِ. ارْجِعُوا، فَلَا حَاجَةَ بِنَا

لُدْحُولِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْمَسْحُورَةِ، وَلَا حَيْرَ فِي الْبَقَاءِ هُنَا حَتَّى لَا تُعْرَضَ أَصْحَابُنَا لِلرِّدَى،
وَلَا نُلْقَى بِهِمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ.»



فَقَالَ فَارِسُ جَرِيءٌ: «أَتَحَ لِي يَا مَوْلَايَ فُرْصَةً مَاجِدَةً، لَعَلِّي أَثْبُتُ قَلْبًا مِنْ صَاحِبِي،
وَأَرْجِحُ عَقْلًا، فَإِنَّ نَفْسِي تُحَدِّثُنِي أَنَّي قَادِرٌ عَلَى فَتْحِ أَبْوَابِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ مَتَى أَدْنِ لِي
الْأَمِيرُ.»

فَقَالَ الْأَمِيرُ «إِقْبَالٌ»: «أَحْشَى أَنْ يَنَالَكَ مَا نَالَ صَاحِبِكَ.» ثُمَّ أَدْنَى لَهُ.
وَمَا إِنْ اسْتَقَرَّ عَلَى السُّورِ، حَتَّى ظَهَرَ عَلَيْهِ مِنَ الْخَبْلِ مِثْلُ مَا ظَهَرَ عَلَى صَاحِبِهِ؛
فَصَفَّقَ بِكَفَّيْهِ، وَصَاحَ صَبِيحَةً رَفِيقِهِ الْأَوَّلَ: «لَيْبِكِ، لَيْبِكِ، لَيْبِكِ، هَا أَنَا ذَا حَاضِرٍ إِلَيْكَ،
وَمَاثِلٌ بَيْنَ يَدَيْكَ.» ثُمَّ قَذَفَ بِنَفْسِهِ مِنْ فَوْقِ السُّورِ، وَهَوَى إِلَى أَرْضِ الْمَدِينَةِ، فَاخْتَلَطَ
لَحْمُهُ بِعَظْمِهِ مِنْ فُورِهِ.

فَلَمْ يَثْنِ مَصْرَعُهُمَا مِنْ عَزْمِ إِخْوَانِهِمَا عَنْ مُتَابَعَتِهِمَا. وَتَهَاوَفْتَا: وَاحِدًا بَعْدَ الْآخَرِ، يُلْحِقُونَ فِي إِنْجَازِ مَا عَجَزَ عَنْهُ غَيْرُهُمْ، وَكُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ أَقْدَرُ مِمَّنْ سَبَقَهُ، وَأَجْدَرُ بِالْفَوْزِ مِنْ أَصْحَابِهِ، حَتَّى هَلَكَ مِنْهُمْ جُمْهُورٌ كَبِيرٌ. وَلَمْ يَنْبُتْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ عَلَى السُّورِ إِلَّا بِمَقْدَارِ مَا لَبِثَهُ غَيْرُهُ، ثُمَّ يَلْقَى مَصْرَعَهُ مِنْ فَوْرِهِ.

(٧) قَائِدُ الْجَيْشِ

فَانْدَبَى قَائِدُ الْجَيْشِ قَائِلًا: «مَا لِهَذَا الْأَمْرِ غَيْرِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ. وَلَنْ تَرَى مِنِّي — إِنْ شَاءَ اللَّهُ — غَيْرَ مَا يَسْرُكُ.»

فَقَالَ لَهُ الْأَمِيرُ «إِقْبَالُ»، وَقَدْ اسْتَوْلَى عَلَيْهِ الْجَزَعُ: «هَيْهَاتَ أَنْ أَدْنَ لَكَ بِذَلِكَ. كَلَّا، لَنْ أُمَكِّنَكَ مِنْ هَذِهِ الْمُحَاوَلَةِ الْجَرِيئَةِ بَعْدَ أَنْ ظَهَرَتْ لَكَ عَاقِبَتُهَا. وَأَنْتَ قَائِدُ الْجَيْشِ وَمُرْشِدُهُ، وَلَنْ يُطَاوِعَنِي قَلْبِي عَلَى أَنْ أُعْرِضَكَ لِلْمَوْتِ بَعْدَ أَنْ رَأَيْتَ مَصَارِعَ ثَلَاثَةِ عَشَرَ مِنْ أَشْجَعِ فُرْسَانِنَا الْمُدْرِيِّينَ.»

وَطَالَ الْحِوَارُ وَالْجَدَلُ بَيْنَ الْأَمِيرِ وَقَائِدِ الْجَيْشِ، ثُمَّ انْتَهَى رَأْيُ الْأَمِيرِ إِلَى إِجَابَةِ الْقَائِدِ: ثِقَّةً بِحِزَامَةِ أَمْرِهِ، وَرَجَاحَةً عَقْلِهِ، وَرِبَاطَةً جَاشِهِ.

وَارْتَقَى الْقَائِدُ السُّلْمَ، وَقَلْبُهُ مُمْتَلِئٌ يَقِينًا وَإِيمَانًا بِنَجَاحِ مَسْعَاهُ، حَتَّى بَلَغَ أَعْلَى السُّورِ. وَمَا كَادَ يَفْعَلُ حَتَّى شَخَّصَ بِبَصَرِهِ، وَبَدَتْ عَلَيْهِ أَمَارَاتُ الاضْطِرَابِ، وَصَاحَ كَمَا صَاحَ أَصْحَابُهُ مِنْ قَبْلُ: «لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ، هَا أَنَا ذَا حَاضِرٍ إِلَيْكَ، وَمَاتِلُ بَيْنَ يَدَيْكَ.» ثُمَّ قَدَفَ بِنَفْسِهِ مِنْ فَوْقِ السُّورِ، وَهَوَى إِلَى الْأَرْضِ كَمَا هَوَى أَصْحَابُهُ مِنْ قَبْلُ.

الفصل الثاني

(١) فاتح المدينة

فَلَمَّا رَأَى الْأَمِيرُ «إِقْبَالَ» مَصَارِعَ أَتْبَاعِهِ، وَهَلَكَ قَائِدَ جَيْشِهِ، أَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَقْلَعُوا عَنْ مُحَاوَلَتِهِمْ، وَقَالَ لَهُمْ: «مَا لِهَذَا الْأَمْرِ غَيْرِي.»

فَارْتَاعَ أَصْحَابُ الْأَمِيرِ وَجَزَعُوا، وَتَفَزَّعُوا مِمَّا سَمِعُوا، وَتَوَسَّلُوا إِلَيْهِ ضَارِعِينَ أَنْ يَكْفَ عَنْ هَذِهِ الْمُخَاطَرَةِ، وَقَالُوا لَهُ مُسْتَعْطِفِينَ: «تَرَفَّقْ بِنَا أَيُّهَا الْأَمِيرُ، فَإِنَّ حَيَاتِنَا رَهْنٌ بِحَيَاتِكَ، وَلَا سَبِيلَ لَنَا إِلَى الْبَقَاءِ بَعْدَكَ، فَأَنْتَ دَلِيلُنَا وَرَائِدُنَا، وَهَادِينَا وَمُرْشِدُنَا.»

فَقَالَ الْأَمِيرُ: «لَقَدْ عَزَمْتُ عَلَى أَنْ أُدْرِكَ هَذِهِ الْغَايَةَ أَوْ أَهْلِكَ دُونَهَا، وَلَنْ يُنْيِنِي عَنْ بُلُوغِهَا شَيْءٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.»

فَلَمَّا رَأَوْا إِصْرَارَ الْأَمِيرِ عَلَى عَزْمِهِ، وَعَجْزَهُمْ عَنْ مُقَاوَمَةِ إِرَادَتِهِ، كَفُّوا عَنْ الْإِحَافِهِمْ، وَاتَّجَّهُوا إِلَى اللَّهِ بِدُعَائِهِمْ وَرَجَائِهِمْ.

وَارْتَقَى الْأَمِيرُ دَرَجَاتِ السُّلْمِ الْعَالِي حَتَّى بَلَغَ ذِرْوَتَهُ. وَمَا كَادَ يَسْتَقِرُّ عَلَى سُورِ الْمَدِينَةِ حَتَّى اسْتَحَفَّهُ الْفَرَحُ، فَصَفَّقَ بِيَدَيْهِ إِعْجَابًا، وَشَخَّصَ بَبَصَرِهِ إِلَى الْفِضَاءِ مُتَأَمِّلًا، فَجَزِعَ أَصْحَابُهُ مِمَّا رَأَوْا، وَتَوَهَّمُوا أَنْ أَمِيرَهُمْ سَيَلْحَقُ بِمَنْ سَبَقَهُ مِنَ الْهَالِكِينَ، وَحَسَبُوا أَنَّهُ قَازِفٌ بِنَفْسِهِ مِنْ أَعْلَى السُّورِ الشَّاهِقِ، فَتَعَالَى صِرَاحُهُمْ، وَأَنْطَلَقُوا يَصِيحُونَ مَذْعُورِينَ: «رُحْمَاكَ اللَّهُمَّ رُحْمَاكَ! تَرَفَّقْ بِنَا أَيُّهَا الْأَمِيرُ، وَلَا تَلْقَ بِنَفْسِكَ إِلَى التَّهْلُكَةِ فَنُصَبِحَ بَعْدَكَ مِنَ الْهَالِكِينَ.»

وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ، وَتَعَلَّيْتِ الْحِكْمَةَ عَلَى الطَّيِّشِ، وَانْتَصَرَ الْعَقْلُ عَلَى السَّحْرِ، فَجَلَسَ
الْأَمِيرُ سَاعَةً طَوِيلَةً، ثُمَّ نَهَضَ وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ بِأَعْلَى صَوْتِهِ فِي لَهْجَةِ الْوَاتِقِ الثَّابِتِ
الْعَزْمِ: «لَا تَخَافُوا عَلَيَّ، وَلَا تَهِنْ عَزَائِمُكُمْ أَيُّهَا الرَّفَاقُ، وَلَنْ تَرَوْا إِلَّا مَا يَسْرُكُمْ إِنْ شَاءَ
اللَّهُ. لَقَدْ صَرَفَ اللَّهُ عَنِّي كَيْدَ الشَّيْطَانِ وَمَكْرَهُ.»
وَجَلَسَ الْأَمِيرُ قَلِيلًا يُفَكِّرُ فِي فَتْحِ أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ نَهَضَ قَائِمًا.

(٢) الْجَوَارِي الْعَشْرُ

أَيُّهَا الصَّدِيقُ الصَّغِيرُ، أَتَعْرِفُ مَاذَا رَأَى الْأَمِيرُ حِينَ وَقَفَ عَلَى سُورِ الْمَدِينَةِ؟
لَقَدْ شَهِدَ مَا لَمْ يَشْهَدُهُ إِنْسَانٌ، وَرَأَى أَعْجَبَ مَا وَقَعَتْ عَلَيْهِ عَيْنَانِ، وَسَمِعَ أَعْرَبَ مَا
سَمِعَتْهُ أُذُنَانِ: رَأَى عَشْرَ جَوَارٍ، كَأَنَّهُنَّ الْأَقْمَارُ، يُشْرَنُ بِأَيْدِيهِنَّ إِلَيْهِ، وَيُنَادِيَنَّهُ قَائِلَاتٍ:
«تَعَالِ إِلَيْنَا أَيُّهَا الْأَمِيرُ الْعَظِيمُ!»
وَحِيلَ إِلَيْهِ أَنَّ تَحْتَهُ بَحْرًا مِنَ الْمَاءِ دَانِيًا مِنْهُ (قَرِيبًا)، فَهَمَّ أَنْ يَفْعَلَ كَمَا فَعَلَ
مَنْ سَبَقَهُ، فَرَأَى أَصْحَابَهُ صَرَعى، فَثَابَ إِلَيْهِ رُشْدُهُ، وَأَدْرَكَ أَنَّ مَا يَرَاهُ خِدَاعٌ سَاحِرٌ،
فَاسْتَمْسَكَ، وَاعْتَصَمَ بِالصَّوْبِ، وَلَمْ يُلْقِ بِنَفْسِهِ.
وَهَكَذَا رَدَّ اللَّهُ عَنْهُ كَيْدَ الشَّيْطَانِ وَفِتْنَتَهُ، وَتَجَلَّى لَهُ أَنَّ مَا رَأَاهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا مَكِيدَةً
دَبَّرَهَا سَاحِرٌ بَارِعٌ، لِيُرَدَّ عَنِ الْمَدِينَةِ كُلِّ مَنْ يُحَاوِلُ اقْتِحَامَهَا، وَيَرُومُ الْوُصُولَ إِلَيْهَا.
وَهَكَذَا رُفِعَتِ الْغِشَاوَةُ عَنْ عَيْنَيْهِ، وَتَكَشَّفَ لَهُ هَوْلُ مَا كَانَ مُقَدِّمًا عَلَيْهِ. وَزَالَ عَنْهُ
كَيْدُ الْكَائِدِينَ، وَحَمَدَ اللَّهُ — سُبْحَانَهُ — عَلَى مَا أَنَارَ لَهُ مِنْ طَرِيقٍ، وَيَسَّرَ لَهُ مِنْ رُشْدٍ
وَتَوْفِيقٍ؛ فَقَدْ شَاءَتْ رَحْمَتُهُ بِالْأَمِيرِ أَنْ يَبْصُرَهُ بِمَوْجِ الْخَطْرِ، فَاعْتَبَرَ بِمَضْرَعِ أَصْحَابِهِ.
وَالسَّعِيدُ مَنْ وَعِظَ بغيرِهِ، وَالشَّقِيُّ مَنْ وَعِظَ بِنَفْسِهِ!

(٣) الطَّلَسُمُ

وَمَشَى الْأَمِيرُ عَلَى السُّورِ بِضِعِّ خُطَوَاتٍ، فَرَأَى بُرْجًا عَالِيًا مِنَ النُّحَاسِ، لَهُ بَابٌ مِنْ
الذَّهَبِ الْإِبْرِيذِ (الْخَالِصِ)، مَفْتُوحٌ عَلَى مِصْرَاعَيْهِ. وَحَانَتْ مِنْهُ الْتَفَاتَةُ فَرَأَى فِي وَسْطِ

البابِ صُورَةَ فَارِسٍ مِنْ نُحَاسٍ، لَهُ كَفٌّ مَمْدُودَةٌ كَأَنَّمَا تُتَشِيرُ إِلَى لَوْحٍ مَكْتُوبٍ، فَفَرَّاهُ الْأَمِيرُ فَإِذَا فِيهِ:

مَرْحَبًا بِكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ الْعَظِيمُ. مَرْحَبًا بِكَ يَا مُخَلَّصَ مَدِينَةِ النُّحَاسِ، وَوَاهِبَ الْحُرِّيَّةِ لِمَنْ فِيهَا مِنَ النَّاسِ.
تَأَمَّلِ الزُّنْبُرُكَ الَّذِي تَرَاهُ فِي صَدْرِ الْفَارِسِ، وَأِدْرُهُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ دَوْرَةً، ثُمَّ افْرُكِ الْمِسْمَارَ اللَّوَلِيَّ الَّذِي بِجَانِبِهِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً.

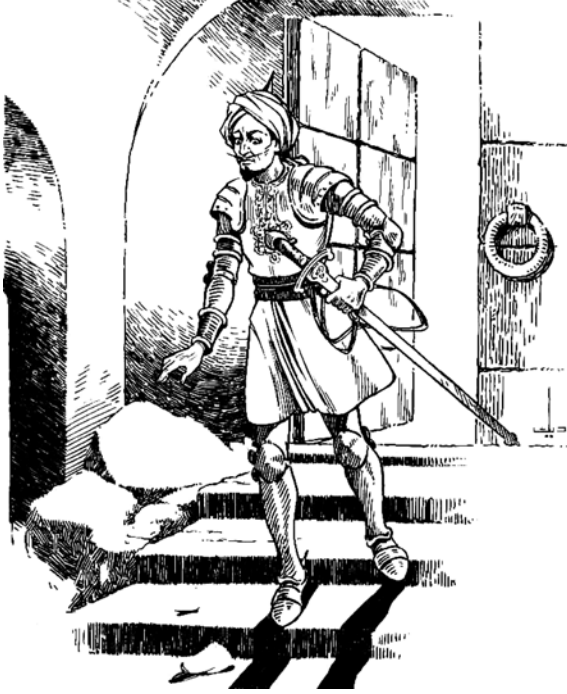
(٤) مَفَاتِيحُ الْمَدِينَةِ

فَتَعَجَّبَ الْأَمِيرُ مِمَّا رَأَى. وَمَا إِنْ أَتَمَّ قِرَاءَةَ وَصِيَّةِ الطَّلَسِمِ حَتَّى انْفَتَحَ أَمَامَهُ بَابٌ صَغِيرٌ فِي الْحَالِ، سَمِعَ لَهُ صَوْتٌ خَافِتٌ، فَدَخَلَ مِنْهُ سَالِكًا دِهْلِيْزًا طَوِيلًا. انْتَهَى بِهِ إِلَى سُلْمٍ نُحَاسِيٍّ صَغِيرٍ الدَّرَجِ، فَهَبَطَ مِنْهُ بِضَعِّ دَرَكَاتٍ، فَرَأَى رُذْهَةً اضْطَفَّتْ فِيهَا الْأَرَاكُ، يَجْلِسُ عَلَيْهَا حُرَّاسٌ، أَشَدَّاءُ أَقْوِيَاءُ كَامِلُو الْعَتَادِ، فِي أَيْدِيهِمُ السُّيُوفُ الْمُزْهَفَةُ، وَالْقَسِيُّ الْمُوتَّرَةُ، وَالسَّهَامُ الْمُفَوَّقَةُ، فَابْتَدَأَهُمُ بِالنَّجِيَّةِ وَالسَّلَامِ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ أَحَدٌ، فَحَسِبَهُمْ نَائِمِينَ، وَقَالَ فِي نَفْسِهِ: «لَعَلَّ مَفَاتِيحَ الْمَدِينَةِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ.»
ثُمَّ أَدَارَ لِحَاطَهُ، فَرَأَى رَجُلًا مَهِيْبَ الطَّلَعَةِ، رَائِعَ السَّمْتِ، بَادِيَ الْفُتُوَّةِ، شَدِيدَ الْبَاسِ وَالْقُوَّةِ، وَهُوَ عَلَى أَرِيكَةٍ عَالِيَةٍ، فَقَالَ الْأَمِيرُ: «لَعَلَّ هَذَا صَاحِبُ مَفَاتِيحِ الْمَدِينَةِ.» وَحَيَّاهُ، فَلَمْ يُجِبْهُ.

وَحَانَتْ مِنْهُ التِّفَاتَةُ، فَرَأَى عَلَى قَيْدِ (مَسَافَةِ) خُطُواتٍ مِنْهُ أَرِيكَةً عَلَيْهَا رَجُلٌ قَاعِدٌ، وَفِي ذِرَاعِهِ سِلْسِلَةٌ مِنَ النُّحَاسِ الْأَصْفَرِ، فِيهَا أَرْبَعَةٌ عَشَرَ مِفْتَاحًا، فَعَرَفَ أَنَّهُ بَوَّابُ الْمَدِينَةِ، فَدَنَا مِنْهُ الْأَمِيرُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ثَانِيَةً وَثَالِثَةً، فَلَمْ يُجِبْ بِشَيْءٍ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى كَتِفِهِ وَقَالَ مُتَعَجِّبًا: «مَا بَالِي لَا أَسْمَعُ مِنْ أَحَدٍ رَدَّ تَحِيَّتِي! أَنَا نِيْلٌ أَنْتَ كَأَصْحَابِكَ أَمْ أَصَمُّ؟» فَلَمْ يُجِبْهُ بِشَيْءٍ وَلَمْ يَتَحَرَّكَ، فَتَأَمَّلَهُ الْأَمِيرُ فَاحْصًا؛ فَإِذَا هُوَ تِمْتَالٌ مِنَ النُّحَاسِ لَا حَرَكَ بِهِ.

فَقَالَ الْأَمِيرُ: «هَذَا أَعْجَبُ مَا رَأَيْتُ. إِنَّهُ تِمْتَالٌ رَائِعُ الصَّنْعِ، لِإِنْسَانٍ يَنْبِضُ بِالْحَيَاةِ، وَلَا يُعَوِّزُهُ غَيْرُ النُّطْقِ. وَمَا أَظُنُّ أَصْحَابَهُ إِلَّا كَذَلِكَ.»

ثُمَّ أَخَذَ الْمَفَاتِيحَ مُيَمِّمًا بَابَ الْمَدِينَةِ، وَفَتَحَ الْأَقْفَالَ، وَرَفَعَ الْمَزَالِيحَ، وَأَزَاحَ الْمَتَارِيسَ،
وَجَدَّ بَابَ جَذْبَةَ قَوِيَّةً، فَاثْقَتَحَ فِي جَلْبَةِ وَقَعْقَعَةٍ.
فَفَرِحَ جُنُودُهُ بِبِنَاجِحِهِ، وَتَعَالَتْ صَيِّحَاتُ الْإِعْجَابِ وَالْإِكْبَارِ، وَالْفَرَحِ وَالِاسْتَبْشَارِ،
بِمَا ظَفَرَ بِهِ الْأَمِيرُ مِنْ فَوْزٍ كَبِيرٍ، حَامِدِينَ اللَّهُ عَلَى نَجَاحِ مَسْعَاهُ.



الفصل الثالث

(١) بَيْنَ الْجَيْشِ وَأَمِيرِهِ

وَحَشِيَ الْأَمِيرُ أَنْ يَتَعَرَّضَ جَيْشُهُ لِلْخَطَرِ إِذَا دَخَلَ هَذِهِ الْمَدِينَةَ الْمَسْحُورَةَ عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِهَا؛ فَأَمَرَ جَيْشَهُ بِالْبَقَاءِ خَارِجَ الْمَدِينَةِ حَتَّى يَزْتَادَ أَسْوَاقَهَا، وَيَتَعَرَّفَ خَبَايَها وَأَسْرَارَهَا، فَإِذَا اطْمَأَنَّ عَلَى سَلَامَةِ جَيْشِهِ أَذِنَ لَهُ فِي الدُّخُولِ. وَحَشِيَ أَصْحَابُ الْأَمِيرِ أَنْ يَتَعَرَّضَ أَمِيرُهُمُ لِلْخَطَرِ إِذَا دَخَلَ هَذِهِ الْمَدِينَةَ الْمَسْحُورَةَ. وَضَاعَفَ مِنْ خَوْفِهِمْ عَلَيْهِ مَا شَاهَدُوهُ مِنْ مَصَارِعِ إِخْوَانِهِمْ وَقَائِدِهِمْ، فَرَاخُوا يَتَوَسَّلُونَ إِلَيْهِ أَنْ يَكْفَ عَنْ مُحَاوَلَتِهِ، وَأَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ — أَوْ لِمَنْ يَخْتَارُهُ مِنْهُمْ — فِي ارْتِيَادِ الْمَدِينَةِ قَبْلَهُ؛ لِيُجَنَّبَهُ الْأَخْطَارَ. وَلَكِنَّ الْأَمِيرَ أَصَرَ عَلَى رَأْيِهِ، وَأَصَمَّ أذُنَيْهِ عَنِ رَجَائِهِمْ، وَأَبَى إِلَّا أَنْ يَفْدِيَ جَيْشَهُ بِنَفْسِهِ؛ فَلَمْ يَسْعَهُمْ غَيْرُ الْخُضُوعِ لِرَأْيِهِ.

(٢) فِي طُرُقَاتِ الْمَدِينَةِ

وَمَشَى الْأَمِيرُ فِي طُرُقَاتِ الْمَدِينَةِ بِضَعِّ خُطَوَاتٍ، فَرَأَى رَجُلًا واقفًا عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَيَمُدُّ يَدَهُ بِالْتَحِيَّةِ فِي بَشَاشَةٍ وَلُطْفٍ؛ فَاسْرَعَ الْأَمِيرُ إِلَى تَحِيَّتِهِ، وَمَدَّ إِلَيْهِ يَدَهُ، فَوَجَدَهُ جَامِدًا لَا يَتَحَرَّكُ. وَتَأَمَّلَهُ فَإِذَا هُوَ تَمَثَّلُ مِنَ النُّحَاسِ. وَمَشَى الْأَمِيرُ خُطَوَاتٍ قَلِيلَةً، فَرَأَى جَمَاعَةً يَتَشَاجِرُونَ، وَقَدْ أَمْسَكَ بَعْضُهُمْ بِنَلَايِبِ رَجُلٍ، فَاسْرَعَ إِلَيْهِمْ، لِيُخَلِّصَهُ مِنْهُمْ، فَوَجَدَهُمْ جَمِيعًا تَمَثِّلُ جَامِدَةً.



ثُمَّ مَشَى فِي الْمَدِينَةِ بِضَعِ خُطُوتِهِ، فَرَأَى رَجُلًا وَاقِفًا فِي عُرْضِ الطَّرِيقِ، فَدَنَا مِنْهُ لِيَتَأَمَّلَهُ، فَإِذَا هُوَ تِمْثَالٌ لَا حَرَكَاتَ بِهِ، فَاسْتَدَّ بِالْأَمِيرِ الْعَجَبُ، وَاسْتَأْنَفَ سَيْرَهُ فِي شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ، فَرَأَى كُلَّ مَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِمْ عَيْنَاهُ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يَتَحَرَّكُونَ. وَقَابَلَ عَجُوزًا عَلَى رَأْسِهَا أَثْوَابُ اشْتَرَتْهَا مِنْ دُكَّانِ ثَوَابٍ، فَدَنَا مِنْهَا، وَتَأَمَّلَهَا، فَلَمْ يَرَ أَمَامَهُ غَيْرَ تِمْثَالٍ. وَرَأَى جَمَهْرَةً مِنْ نِسَاءٍ وَصَبِيَّانٍ وَأَطْفَالٍ، وَشَبَابٍ وَكُهُولٍ، وَصَبَايَا وَعَجَائِزَ لَيْسَ مِنْهُمْ مَنْ يَتَحَرَّكُ أَوْ يَتَكَلَّمُ، فَهُمْ تِمْثَالٌ لَا تُسِيرُ بِطَرْفٍ (بِعَيْنٍ)، وَلَا تَنْطِقُ بِحَرْفٍ.

(٣) أَسْوَاقُ الْمَدِينَةِ

وَاسْتَأْنَفَ الْأَمِيرُ سَيْرَهُ، فَوَجَدَ أَسْوَاقًا أَرْبَعًا، فَدَخَلَهَا — وَاحِدَةً بَعْدَ الْأُخْرَى — فَوَجَدَ كُلَّ مَنْ فِيهَا مِنْ حَيَوَانَ وَنَاسٍ، تِمْثَالٌ مَصْبُوبَةٌ مِنَ النُّحَاسِ.

هَذِهِ دَكَائِكُ الصَّنَاعِ وَالتُّجَّارِ مَفْتُوحَةَ الْأَبْوَابِ، مَعْرُوضَةَ السَّلْعِ، مَصْفُوفَةَ البَضَائِعِ،
مُعَلَّقَةَ المَوَازِينِ، أَصْحَابَهَا وَزَائِرُوهَا تَمَثِيلُ لَا تَعِي وَلَا تَنْطُقُ.

هَذَا حَدَادٌ فَارِعُ الطُّولِ، مَفْتُولُ السَّاعِدِينَ، يَفِيضُ نَشَاطًا وَقُوَّةً، وَقَدْ رَفَعَ مِطْرَقَتَهُ
لِيَهْوِيَ بِهَا عَلَى السَّنْدَانِ، فَبَقِيَتْ ذِرَاعُهُ مَمْدُودَةً، وَمِطْرَقَتُهُ مُعَلَّقَةٌ فِي الفَضَاءِ، وَأَمَامَهُ
صَبِيهُ نَافِخِ الكَبِيرِ، جَامِدٌ كَمُعَلِّمِهِ.

وهذا نَجَّارٌ يَشُقُّ لَوْحًا كَبِيرًا بِمِنْشَارِهِ، وَقَدْ بَلَغَ مُنْتَصَفَهُ، وَوَقَفَ حَيْثُ هُوَ لَا حَرَكَ

بِهِ.

وَذَلِكَ زَيَّاتٌ نَصَبَ مِيزَانَهُ، وَأَمَامَهُ البَضَائِعُ مِنْ جُبْنٍ وَرَيْثُونِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ، هَامِدًا
لَا يَتَحَرَّكُ. وَهَذَا تَيَّانٌ يَبِيعُ التَّيْنَ، وَتَمَّارٌ يَبِيعُ التَّمْرَ (البَلَّحُ) وَعَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُمَا فَاكِهَانِيٌّ
يَبِيعُ الفَاكِهَةَ، يَلِيهِ دَقِيقِيٌّ يَبِيعُ الدَّقِيقَ.

وَمَشَى خُطُوبَاتٍ قَلِيلَةً فَرَأَى جَدًّا يَبِيعُ الطُّيُورَ، وَجَزَّارًا يَبِيعُ اللَّحْمَ، وَرِئَّاسًا يَبِيعُ
الرُّعُوسَ، وَسَمَّانًا يَبِيعُ السَّمْنَ، وَدَهَّانًا يَبِيعُ الدُّهْنَ، وَبَيَّاضًا يَبِيعُ البَيْضَ، وَجَبَّانًا يَبِيعُ
الجُبْنَ، وَعَسَّالًا يَبِيعُ العَسَلَ، وَخَبَّارًا يَبِيعُ الخَبَرَ.

ثُمَّ سَارَ الأَمِيرُ إِلَى سُوْقٍ ثَانِيَةٍ، فَرَأَى دَكَائِكِ البَرَّازِينَ وَالتَّوَابِينَ مَمْلُوءَةً بِأَنْوَاعِ
الثِّيَابِ، مِنَ القُطْنِ وَالكِتَّانِ، وَالخَزِّ وَالحَرِيرِ، وَالدَّبِيحِ المَنْسُوجِ بِالدَّهَبِ الأَحْمَرِ وَالفِضَّةِ
البَيْضَاءِ، وَمَا إِلَيْهَا مِنْ مُخْتَلَفِ الثِّيَابِ.

وَرَأَى الفَرَّائِينَ يَبِيعُونَ الفِرَّاءَ، وَالوَشَائِينَ يَعْمَلُونَ الوَشْيَ، وَالرَّفَائِينَ يَرْفُتُونَ الثِّيَابَ،
وَالهَدَّابِينَ يَفْتَلُونَ الحَيْطَ، وَالنَّجَادِينَ يَخِيطُونَ الفُرْشَ وَالوَسَائِدَ، وَالكَوَائِينَ يَكُونُ
الثِّيَابَ، وَالأَبَّارِينَ يَصْنَعُونَ الإِبْرَ، وَالنَّسَاجِينَ يَنْسُجُونَ الثِّيَابَ، وَالحَدَّائِينَ يَصْنَعُونَ
الأَحْذِيَّةَ، وَإِلَى جَانِبِهِمْ طَائِفَةٌ مِنَ الصَّبَّاعِينَ وَالدَّبَّاعِينَ.

ثُمَّ انْتَقَلَ الأَمِيرُ إِلَى سُوْقٍ ثَالِثَةٍ، فَرَأَى جَمَاعَةً مِنَ الصِّيَّاعِ وَتُجَّارِ اللُّؤْلُؤِ وَأَمَامَهُمْ
نَفَائِسُ الأَحْجَارِ الكَرِيمَةِ كَالْبَاقُوتِ وَالرُّمُودِ وَالمَرْجَانِ (صِغَارِ اللُّؤْلُؤِ)، وَكُلُّهُمْ — بَيْنَ
وَاقِفٍ وَجَالِسٍ — سَاكِنٌ لَا يَتَحَرَّكُ وَلَا يَنْطُقُ.

وَرَأَى الرُّجَّاجِينَ يَصْنَعُونَ الرُّجَّاجَ، وَالحَزَّافِينَ يَبِيعُونَ الحَزْفَ، وَالفَخَّارِينَ يَصْنَعُونَ
أَوَانِي الفَخَّارِ، وَالجَلَّائِينَ يَجْلُونَ الإِنِيَّةَ، وَالعَوَاجِينَ يَبِيعُونَ العَاجَ، وَالسَّكَّائِينَ يَعْرِضُونَ
السَّكَّائِينَ، وَالشَّعَّابِينَ يُصَلِّحُونَ مَا تَصَدَّعَ مِنَ الأَوَانِي.



وَمَشَى خُطُواتٍ قَلِيلَةً فَرَأَى صَيْدِلِيًّا يَبِيعُ الأَدْوِيَةَ، وَإِلَى جِوَارِهِ مُجَبَّرًا يَجْبُرُ العِظامَ
المَكْسُورَةَ. وَأَنْتَهَى بِهِ المِطافُ إِلَى السُّوقِ الرَّابِعَةِ حَيْثُ وَجَدَ النُّحاسِينَ يَبِيعُونَ الدَّوابَّ:
فَهَذَا مَعَّازٌ يَصْحَبُ مَعِيزَهُ، وَذَلِكَ كَلابٌ مَعَهُ كِلابُهُ، وَمَنْ بَعْدَهُما سائِيٌّ يَصْحَبُ شاءَهُ
وَنعاجَهُ.

وما زالَ الأَميرُ يَنْتَقِلُ مِنْ سُوْقٍ إِلَى سُوْقٍ، وَمِنْ طَرِيقٍ إِلَى طَرِيقٍ، فَلَا يَرَى إِلا
رِوائعَ مِنَ التَّمائيلِ النُّحاسِيَّةِ، حَيوانِيَّةً وإنسانِيَّةً.

(٤) حَيْرَةُ الأَميرِ

شَدَّ ما أَدهَشَهُ وَحَيْرَ عَقْلَهُ أَلَّا يَرَى فِي المَدِينَةِ كُلِّها أَحَدًا مِنَ الأَحْياءِ! وَاعجَبًا! أَلَيْسَ فِيها
مَنْ يَنْطِقُ أَوْ يُجيبُ!

يا لَعْرَابَةَ ما يَشْهَدُ! حَتَّى الكِلابُ والقِطَطَةُ وَسائِرُ الطُّيُورِ والحَيَوانِ كُلُّها تَمائيلُ
هَامِدَةٌ مِنَ النُّحاسِ، فاقِدَةُ الحَيَاةِ! يا لَهْولِ ما تَرَاهُ عَيْنَاهُ! أَكُلُّ ما في المَدِينَةِ تَمائيلُ لا
حَرَكَةَ بِها ولا جِسَّ، لا يَتَرَدَّدُ بَيْنَ جَنابَتِها نَفْسٌ؟!
تُرى: أَيُّ ساجِرٍ غَضِبَ عَلى هَذِهِ المَدِينَةِ فَسَلَّطَ نِقْمَتَهُ عَلى أَهْلِها، وَمَسَحَ ساكِنيها؛
فَحَوَّلَ أَجسادَ مَنْ فيها مِنَ حَيَوانٍ وناسِ، تَمائيلَ مُبَدَعَةً مِنَ النُّحاسِ، تُخَيِّلُ لِرائِئِها
أَنَّها تَنبِضُ بِالحَيَاةِ. وَلِكنَّ أَصحابَها لا يَنحَرِّكُونَ ولا يَتَكَلَّمُونَ، يُسائِلُهُمُ فَلَا يُجيبُونَ،
ويُحاوِرُهُمُ فَلَا يَنطِقُونَ.

الفصل الرابع

(١) في القصر الملكي

وَمَا زَالَ الْأَمِيرُ يَتَنَقَّلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ حَتَّى انْتَهَى بِهِ السَّيْرُ إِلَى قَصْرِ عَلِيِّ الْبُنْيَانِ، رَائِعِ التَّصَاوِيرِ، فَلَمَّا دَخَلَهُ رَأَى جَمَاعَةً مِنَ الْجُنْدِ وَالْحَرَسِ يَفْقُونَ عَلَى الْأَبْوَابِ، وَخَلْفَهُمْ جَمَاعَةٌ أُخْرَى جَالِسِينَ عَلَى أَرَاكِ فَاخِرَةٍ، صُفَّتْ عَلَيْهَا الْوَسَائِدُ الْحَرِيرِيَّةُ، مُوشَّاةً بِأَجْمَلِ النُّقُوشِ، وَقَدْ ارْتَدَوْا أَبْهَى الثِّيَابِ؛ يُخَيَّلُونَ إِلَيْكَ أَنَّ دَمَ الْحَيَاةِ يَجْرِي فِي عُرُوقِهِمْ، فَإِذَا دَانِيَتْهُمْ وَجَدْتَهُمْ تَمَاثِيلَ جَامِدَةٍ.

وَمَشَى فِي جَنَابَاتِ الْقَصْرِ، فَرَأَى قَاعَةً فَسِيحَةً يَجْلِسُ عَلَيْهَا وُزَرَاءُ الدَّوْلَةِ وَأَمْرَاؤُهَا. وَحَانَتْ مِنْهُ التَّفَاتَةُ فَأَبْصَرَ فِي صَدْرِ الْمَجْلِسِ كُرْسِيًّا مِنَ الذَّهَبِ الْإِبْرِيذِ مُرْصَعًا بِأَنْفَسِ الْحِجَارَةِ الْكَرِيمَةِ، وَقَدْ جَلَسَ فِيهِ الْمَلِكُ فِي أَفْحَمِ حُلِّهِ، وَرَأَى عَلَى مَفْرَقِهِ تَاجًا مُكَلَّلًا بِبَنْفَيْسِ الدَّرِّ وَثَمِينِ اللَّكَلِيِّ، تَشُعُّ مِنْهَا الْأَصْوَاءُ، فَتُجِلُّ الظَّلَامَ نُورًا.

ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى قَاعَةِ أُخْرَى، فَرَأَى طَائِفَةً مِنَ الْجَوَارِي وَالْوَصَائِفِ، حَوْلَ مَلِيكَتِهِنَّ، لَتَلْقَى إِشَارَتِهَا، مُتَاهَبَاتٍ لِتَنْفِيذِ رَعْبَتِهَا.

وَعَجِبَ الْأَمِيرُ مِنْ بَرَاعَةِ الْمُهَنْدِسِينَ، وَأَفْنَانِهِمْ فِي هَنْدَسَةِ الْقَصْرِ وَنَقْشِهِ، وَتَنْسِيقِ أَثَائِهِ وَقَرَشِهِ، وَرَوْعَةِ تَصَاوِيرِهِ، وَسَنَا مَصَابِيحِهِ الْبُلُورِيَّةِ، وَثُرَيَّاتِهِ الْمُتَالِفَةِ بِنَفَائِسٍ مِنَ الدَّرِّ الْيَتِيمِ (النَّادِرِ).

(٢) حوار الأميرين

وَاسْتَأْنَفَ سَيِّرَهُ مُنْتَقِلًا مِنْ عَجَبٍ إِلَى عَجَبٍ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَاعَةِ فَاخِرَةٍ، فَرَأَى فَتَاةً جَمِيلَةً الْمُحْيَا، مُشْرِقَةَ الطَّلَعَةِ تَقْرَأُ فِي كِتَابٍ، وَمَا إِنْ لَمَحْتَهُ حَتَّى خَفَتْ إِلَيْهِ تَسْتَقْبِلُهُ، وَتَبْتَدِرُهُ بِالتَّحِيَّةِ فِي أَدَبٍ وَاحْتِرَامٍ، وَتُنَادِيهِ بِاسْمِهِ مُرَحَّبَةً بِهِ، فَرِحَانَةٌ بِمَقْدَمِهِ، فَاشْتَدَّ عَجَبُ الْأَمِيرِ مِمَّا رَأَى وَسَمِعَ، فَقَالَ لَهَا مَذْهُوشًا: «كَيْفَ عَرَفْتِنِي، وَنَادَيْتَنِي بِاسْمِي؟» فَقَالَتْ لَهُ مُبْتَسِمَةً: «لَا تَعْجَبْ مِمَّا تَرَى وَتَسْمَعُ؛ فَأَنَا أَتَرَقَّبُ قُدُومَكَ مُنْذُ زَمَنْ طَوِيلٍ.»

فَقَالَ لَهَا مُنْحَرِبًا: «تَتَرَقَّبِينَ قُدُومِي؟ كَيْفَ! وَمَنْ أَنْبَأَكَ عَنِّي؟ وَمَا بَالُ هَذِهِ الْمَدِينَةِ قَدْ مَسَخَ سَاكِنُوهَا، وَتَحَوَّلَ قَاطِنُوهَا تَمَائِيلَ مِنَ النُّحَاسِ، وَبَقِيَتْ أَنْتِ وَحَدِكَ سَالِمَةً بِنَجْوَةٍ مِمَّا لِحَقَ أَهْلِهَا مِنَ الْمَسْخِ!؟ أَيُّ الْغَازِ أَرَى وَأَحَاجِي!؟» فَقَالَتْ لَهُ الْفَتَاةُ مُتَلَطِّفَةً: «هَا أَنَا ذِي أَفْضِي إِلَيْكَ بِمَا تُرِيدُ مِنْ أَنْبَاءٍ إِذَا تَفَضَّلْتَ بِالْجُلُوسِ، وَأَعَرْتَنِي سَمْعَكَ وَإِنْتِبَاهَكَ.» فَقَالَ لَهَا: «مَا أَشَوْقَنِي إِلَى تَعْرِفِ أَسْرَارِ مَا رَأَيْتُ مِنْ الْغَازِ وَمُعَمِّيَاتِ!»



(٢) حَدِيثُ «رَائِعَةَ»

فَأَنْشَأَتِ الْفَتَاةُ تَقُولُ: «تَسْأَلِنِي مَنْ أَكُونُ؟ وَكَيْفَ عَرَفْتُ اسْمَكَ، وَتَرَقَّبْتُ قُدُومَكَ؟ وَمَا سِرُّ هَذِهِ الْمَدِينَةِ؟ وَلِمَاذَا مُسَخَّ أَهْلُهَا وَبَقِيَتْ وَحْدِي وَنَاجِيَةً مِنَ السَّحْرِ؟ فَأَعْلَمُ — يَا سَيِّدِي الْأَمِيرَ الْجَلِيلَ — أَنَّي «رَائِعَةُ» بِنْتُ مَلِكِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ. وَلَعَلَّكَ رَأَيْتَ أَبِي وَهُوَ جَالِسٌ فِي صَدْرِ دِيوانِهِ، وَأَنْتِ سَائِرٌ فِي طَرِيقِكَ إِلَيَّ. وَقَدْ كَانَ ذَائِعَ الصَّيْتِ بَيْنَ مُلُوكِ «الْهِندِ»، وَكَانَ لَنَا جَارٌ اسْمُهُ «مَرْمُوشٌ» يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، فَمَرَّ بِحَاضِرَةِ مُلْكِهِ — ذَاتَ يَوْمٍ — نَاسِكٌ مِنْ كِبَارِ النُّسَاكِ الْمَعْرُوفِينَ بِالْقَنَاعَةِ وَالرُّهْدِ، وَرَجَاحَةِ الْعَقْلِ وَسَعَةِ الْعِلْمِ، فَلَمْ يَقْصُرْ فِي إِرْشَادِ النَّاسِ وَتَنْوِيرِ بَصَائِرِهِمْ، وَلَمْ يَأَلْ جُهْدًا فِي دَعْوَتِهِمْ إِلَى عِبَادَةِ خَالِقِ الْكَائِنَاتِ، وَتَنْفِيرِهِمْ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، الَّتِي لَا تَمْلِكُ لَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، فَالْتَفَّ

حَوْلَهُ النَّاسُ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ الْمُرِيدُونَ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ عُرِفَ أَمْرُهُ، وَذَاعَ صَيْتُهُ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى سَمْعِ الْمَلِكِ، فَأَمَرَ بِاسْتِنْدَاعِهِ إِلَيْهِ، فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ سَأَلَهُ عَمَّا نَمَى إِلَيْهِ، فَلَمْ يَكْتُمْهُ النَّاسُكَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ يَتَلَطَّفُ فِي دَعْوَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، وَالْإِقْلَاعِ عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ.

فَغَضِبَ الْمَلِكُ مِمَّا سَمِعَ، وَتَعَجَّبَ مِنْ جُرْأَةِ النَّاسِكَ، وَتَوَعَّدَهُ بِالْعِقَابِ إِذَا لَمْ يَكْفُفْ عَنْ هَذَيَانِهِ، وَيُقْلَعُ عَنْ عِنَادِهِ، فَلَمْ يَسْتَجِبِ النَّاسُكَ لَوَعِيدِهِ، وَلَمْ يُبَالِ بِتَهْدِيدِهِ. فَاشْتَدَّ غَضَبُ «مَرْمُوشٍ» عَلَيْهِ، وَأَمَرَ بِسَجْنِهِ، وَإِعْدَادِ الْعِدَّةِ لِإِحْرَاقِهِ حَيًّا. وَهَيَأَ لَهُ نَارًا جَاحِمَةً وَسَطَ الْمِيْدَانِ الْكَبِيرِ، لِيَشْهَدَ النَّاسُ جَزَاءَهُ عَلَى مَا أَبْدَاهُ مِنْ صِدْقِهِ وَإِخْلَاصِهِ فِي دَعْوَتِهِ. وَذَاعَتْ قِصَّةُ النَّاسِكَ فِي أَنْحَاءِ الْمَدِينَةِ، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ لِيَرَوْا مَصْرَعَهُ، فَلَمَّا سُعِرَتِ النَّارُ وَتَهَيَأَ الْجُنْدُ، وَاسْتَعَدُّوا لِإِقْلَاعِ النَّاسِكَ فِي أَتُونِهَا الْمُلْتَهَبِ، غَامَتِ السَّمَاءُ فَجَاءَتْ، وَبَرَقَ الْبَرْقُ، وَجَلَجَلَ الرَّعْدُ، ثُمَّ هَمَّتِ الْأَمْطَارُ سَيُولًا، فَأَطْفَأَتِ النَّارَ، وَسَادَ الْهَرَجُ وَالْمَرْجُ، وَتَدَافَعَ النَّاسُ إِلَى بُيُوتِهِمْ حَتَّى لَا تُغْرِقَهُمُ السُّيُولُ الْمُنْدَقَّةُ. وَهَكَذَا أُتِيحَتِ الْفُرْصَةُ لِلنَّاسِكَ الصَّالِحِ فَأَمَكَّنَتْهُ مِنَ الْفِرَارِ.

وَبَعْدَ سَاعَاتٍ صَحَا الْجَوُّ وَانْقَشَعَ الْمَطَرُ، وَبَحَثَ الْجُنُودُ عَنِ النَّاسِكَ، فَلَمْ يَعْثُرُوا لَهُ عَلَى أَثَرٍ. وَمَشَى النَّاسُكَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى بِلَادِ «التَّبَّتِ» يُوَاصِلُ السَّيْرَ لَيْلَ نَهَارٍ حَتَّى بَلَغَ مَدِينَتَنَا. وَكَانَ أَبِي يَسْمَعُ بِصَلَاحِهِ، وَيَعْجَبُ بِتَقْوَاهُ، فَلَمَّا أَفْضَى إِلَى أَبِي بِقِصَّتِهِ اسْتَقْبَلَهُ أَحْسَنَ اسْتِقْبَالٍ، وَرَحَّبَ بِهِ وَأَكْرَمَ مَثْوَاهُ. فَلَبِثَ النَّاسُكَ عِنْدَنَا أَيَّامًا قَلِيلًا، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ أَبِي فِي اسْتِنْفَافِ السَّفَرِ عَائِدًا إِلَى بَلَدِهِ.

فَتَشَبَّثَ بِهِ أَبِي، وَأَلْحَ عَلَيْهِ فِي الْبِقَاءِ عِنْدَهُ، فَتَلَطَّفَ النَّاسُكَ فِي الْإِعْتِدَارِ إِلَيْهِ، وَمَا زَالَ يُلْحَفُ فِي الرَّجَاءِ، حَتَّى أَذِنَ لَهُ أَبِي فِي السَّفَرِ، عَلَى كُرْهِ مِنْهُ. وَكَأَنَّمَا خَشِيَ النَّاسُكَ أَنْ تَهْتَدِيَ إِلَى مَكَانِهِ عُيُونُ الْمَلِكِ «مَرْمُوشٍ» فَيَشْتَبِكَ كِلَاهُمَا فِي حَرْبٍ طَاحِنَةٍ مِنْ جَرَائِهِ، وَقَدْ تَحَقَّقَ مَا خَشِيَهُ النَّاسُكَ، فَلَمْ يَنْقِضْ عَلَى سَفَرِهِ زَمَنٌ قَلِيلٌ حَتَّى وَقَدَ عَلَى أَبِي رَسُولٌ مِنْ «مَرْمُوشٍ» عَابِدِ الْأَصْنَامِ، يَتَوَعَّدُهُ فِيهِ بِالْحَرْبِ إِذَا لَمْ يُسَلِّمْ إِلَيْهِ النَّاسُكَ الَّذِي حَلَّ بِمَدِينَتِهِ ضَيْفًا. وَغَضِبَ أَبِي مِنْ جُرْأَةِ جَارِهِ، وَطَرَدَ رَسُولَهُ سَرَّ طَرْدَةٍ، بَعْدَ أَنْ أَمَرَهُ أَنْ يُخْبَرَ مَلِيكُهُ أَنَّ النَّاسُكَ قَدْ سَافَرَ مُنْذُ أَيَّامٍ، وَأَنَّهُ لَوْ بَقِيَ عِنْدَهُ لَمَا قَبِلَ أَنْ يُسَلِّمَهُ إِلَيْهِ.

وَكَانَ أَبِي يَعْرِفُ قُوَّةَ «مَرْمُوشٍ» وَشِدَّةَ بَأْسِهِ، فَأَعَدَّ لِلِقَائِهِ عُدَّتَهُ، وَحَصَّنَ مَدِينَتَهُ، وَغَلَّقَ أَبْوَابَهَا الْعَالِيَةَ، وَأَعَدَّ الْعُدَّةَ لِرَدِّ عُدْوَانِ الْغَزَاةِ.
وَذَا صَبَاحٍ سَمِعْتُ صَوْتَ بُوقٍ عَالِيًا يُدَوِّي فِي الْفَضَاءِ، فَيَكَادُ يُصِمُّ الْأَذَانَ.

فَحُيِّلَ إِلَيَّ — لِهَوْلٍ مَا سَمِعْتُ — أَنَّ أَحِرَّةَ الْعَالَمِ قَدْ حَانَتْ. وَحَرَجْتُ أَمْشِي فِي أَنْحَاءِ الْقَصْرِ هَائِمَةً، فَوَجَدْتُ كُلَّ مَنْ رَأَيْتُ — مِنْ وَصَائِفٍ وَوَصِيفَاتٍ، وَنِسَاءٍ وَقَتِيَّاتٍ — تَمَثِيلَ صُمَّا مِنَ النَّحَاسِ. فَاسْرَعْتُ إِلَى دِيْوَانِ أَبِي اسْتَجْلِي الْخَبَرَ، فَرَأَيْتُهُ جَالِسًا مَعَ حَاشِيَتِهِ وَسِرَاةٍ مَمْلُكَتِهِ، وَكُلُّهُمْ تَمَثِيلُ نُحَاسِيَّةٍ. وَانْدَفَعْتُ فِي طُرُقَاتِ الْمَدِينَةِ وَأَسْوَاقِهَا، فَلَمْ تَقَعْ عَيْنَايَ إِلَّا عَلَى تَمَثِيلِ نُحَاسِيَّةٍ. وَلَعَلَّكَ رَأَيْتَ مُصَدِّقًا مَا أَقُولُ، وَشَهِدْتَ بِعَيْنِكَ وَأَبْصَرْتَ بِنَاطِرِكَ: كَيْفَ تَحَوَّلَتِ الْكِلَابُ وَالْقِطَطَةُ وَالْجِرْدَانُ وَالطُّيُورُ، تَمَثِيلَ صُمَّا لَا تَسْمَعُ وَلَا تَتَحَرَّكُ!

وَقَضَيْتُ يَوْمًا رَابِعًا، وَلَيْلَةً سَاهِرَةً، لِهَوْلٍ مَا رَأَيْتُ. ثُمَّ غَلَبَنِي النَّوْمُ لِطُولِ مَا كَابَدْتُ مِنَ الضَّنَى وَالسَّهْرِ، فَرَأَيْتُ النَّاسِكَ يَزُورُنِي فِي عَالَمِ الْأَحْلَامِ، وَبُرَبَّتُ كَتِفِي مُتَلَطِّفًا، وَيَقُولُ لِي مُبْتَسِمًا: «لَا تَخَافِي يَا «رَائِعَةُ» وَلَا تَحْزَنِي، فَلَنْ يُصِيبَكَ سُوءٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَسَيَكُونُ خَلَاصُكَ وَخَلَاصُ كُلِّ مَنْ فِي الْمَدِينَةِ عَلَى يَدِ رَجُلٍ صَالِحٍ شُجَاعٍ، اسْمُهُ الْأَمِيرُ «إِقْبَالُ»، وَسَيَشْتَرِكُ مَعَهُ أَخُوكَ الْأَمِيرُ «فَاضِلُ»، فِي كَشْفِ الْغَمَّةِ وَرِوَالِ السَّحْرِ عَنِ الْمَدِينَةِ وَسَاكِنَيْهَا، فَاصْبِرِي عَلَى قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ، وَلَا تَحْشِي أَنْ تَهْلِكِي جُوعًا؛ فَقَدْ بَقِيَتْ لَكَ مِنْ بَيْنِ أَشْجَارِ الْحَدِيقَةِ شَجَرَتَا تَيْنٍ وَتَفَاحٍ، لَمْ تَمَسَّ بِسُوءٍ، فَكُلِّي مِنْهُمَا كُلَّمَا جُعْتِ، وَأَشْرَبِي مِنَ النَّبْعِ الصَّافِي الَّذِي يَسْقِيهِمَا، وَاشْكُرِي اللَّهَ عَلَى مَا هَيَّأَ لَكَ مِنْ سَلَامَةٍ وَفَوْزٍ بِالسَّعَادَةِ، وَاتَّجِهِي إِلَيْهِ، وَأَخْلِصِي فِي عِبَادَتِهِ.»

وَكَانَ فِي قَصْرِنَا مَكْتَبَةٌ حَافِلَةٌ بِنَفَائِسِ الْمَخْطُوطَاتِ، فَاسْرَعْتُ إِلَيْهَا — وَأَنَا أَخْشَى أَنْ تَكُونَ الْمِحْنَةُ قَدْ أَصَابَتْهَا — فَوَجَدْتُهَا كَمَا هِيَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، فَكَانَ لِي فِي الْقِرَاءَةِ حَيْرٌ عَزَاءً.»

فَلَمَّا سَمِعَ الْأَمِيرَ «إِقْبَالَ» حَدِيثَ الْأَمِيرَةِ اشْتَدَّ بِهِ الْعَجَبُ، وَسَأَلَهَا مُتَحِيرًا: «وَكَيْفَ نَجَوْتِ وَحَدَكِ مِنْ سِحْرِ السَّاحِرِ، فَلَمْ تَتَحَوَّلِي تَمَثَالًا مِنَ النُّحَاسِ، كَمَا تَحَوَّلَ مَنْ فِي الْمَدِينَةِ مِنْ طَيْرٍ وَحَيَوَانٍ وَنَاسٍ؟»

(٤) فَتَاةُ الْجِنِّ

فَقَالَتِ الْفَتَاةُ: «لِذَلِكَ نَبَأٌ عَجِيبٌ، أَنَا أَقْضُهُ عَلَى سَيِّدِي: بَيْنَمَا كَانَتْ أُمِّي تَسِيرُ ذَاتَ يَوْمٍ فِي أَحَدِ الْمُرُوجِ الْمُحِيطَةِ بِقَصْرِنَا الرَّيْفِيِّ إِذْ رَأَتْ عَلَى مَسَافَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْهَا حَيَّةً بَيْضَاءَ، تَجِدُ مُسْرَعَةً فِي الْهَرَبِ، وَخَلْفَهَا تُعْبَانُ أَسْوَدٌ يَجْرِي فِي أَثْرِهَا مُسْرَعًا فِي الطَّلَبِ، ثُمَّ لَا يَلْبُثُ أَنْ يُدْرِكَهَا وَيُمْسِكُ بِرَأْسِهَا، وَيَلْفُ ذَيْلَهُ عَلَى ذَيْلِهَا، وَيُوشِكُ أَنْ يَفْتِكَ بِهَا. فَاسْرَعَتْ أُمِّي إِلَى نَجْدَةِ الْحَيَّةِ الْبَيْضَاءِ، وَقَذَفَتْ التُّعْبَانَ بِحَجَرٍ كَبِيرٍ فَحَطَّمَتْ رَأْسَهُ وَقَتَلَتْهُ عَلَى الْفُورِ. وَمَا كَانَ أَشَدَّ دَهْشَتَهَا حِينَ رَأَتْ التُّعْبَانَ الْأَسْوَدَ يَتَحَوَّلُ بَعْدَ مَوْتِهِ فِي مِثْلِ لَمَحِ الْبَصْرِ كَوْمَةً مِنْ رَمَادٍ، وَتَنْتَفِضُ الْحَيَّةُ الْبَيْضَاءُ، فَإِذَا هِيَ فَتَاةٌ رَائِعَةٌ الْجَمَالِ، فِي رَيْعَانٍ صَبَاها، وَمُقْتَبَلِ شَبَابِها، ثُمَّ تَقُولُ لِأُمِّي شَاكِرَةً: «هَيْهَاتَ أَنْ يَضِيعَ عِنْدِي يَا مَلِيكَةَ الْإِنْسِ، مَا أَسَدَيْتِ إِلَيَّ مِنْ مَعْرُوفٍ! وَمَا أَنَسَ لَا أَنَسَ أَنْكَ أَنْقَذْتِنِي مِنْ عَدُوِّي اللَّدُودِ بَعْدَ أَنْ أَوْشَكَ أَنْ يُهْلِكَنِي. وَلَعَلَّ اللَّهَ يُقَدِّرُنِي عَلَى رَدِّ الْجَمِيلِ إِلَيْكَ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ.»

ثُمَّ أَشَارَتْ فَتَاةُ الْجِنِّ بِيَدِها، فَانْشَقَّتِ الْأَرْضُ، وَسُرْعَانَ مَا غَاصَتْ فِيها وَاسْتَحْفَتْ عَنِ الْأَنْطَارِ، وَعَادَتِ الْأَرْضُ كَمَا كَانَتْ.

(٥) هَدِيَّةُ الْجِنِّيَّةِ

وَمَرَّتْ عَلَى ذَلِكَ الْحَادِثِ أَعْوَامٌ، ثُمَّ حَضَرَتْ فَتَاةُ الْجِنِّ إِلَى أُمِّي يَوْمَ وُلِدَتْ أُخِي «فَاضِلًا»، وَأَهَدَتْ إِلَيَّ أُمِّي قَارُورَةً صَغِيرَةً مَلَأَتْها مِنْ نَهْرِ «عَبْقَر»، وَأَوْصَتْها أَنْ تَمْرُجَ بِلَبِنِها قَطْرَاتٍ مِنْ مَائِها، ثُمَّ تَسْقِي وَلِيدِها هَذَا الْمِزَاجَ، فَلَنْ تَفْرُغَ الرَّجَا جَهَةَ حَتَّى يُصْبِحَ الْوَلِيدُ آمِنًا مِنْ سِحْرِ كُلِّ سَاحِرٍ، وَكَيْدِ كُلِّ كَائِدٍ.

فَسَكَرَتْ لَهَا أُمِّي هَدِيَّتِها، وَاتَّبَعَتْ نَصِيحَتِها.

الفصل الرابع

ثُمَّ جَاءَتْ فَتَاةُ الْجِنِّ يَوْمَ وَلَدْتَنِي أُمِّي، فَأَحْضَرَتْ لَهَا مِثْلَ الْقَارُورَةِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي
أَحْضَرْتَهَا يَوْمَ وُلِدَ أُخِي، وَأَوْصَتْهَا أَنْ تَسْقِيَنِي مِنْهَا، كَمَا سَقَتْ أُخِي مِنْ قَبْلُ.
وَقَدْ صَدَقَتْ فَتَاةُ الْجِنِّ فِيمَا قَالَتْ؛ فَقَدْ مُسِخَ كُلُّ مَنْ فِي الْمَدِينَةِ مِنْ إِنْسَانٍ، وَطَيْرٍ
وَحَيَوَانٍ، وَنَجَوْتُ وَحْدِي مِنَ الْمَسِخِ؛ بِفَضْلِ مَا شَرِبْتُ مِنْ مَاءِ «عَبَقَر».
وَمَا إِنَّ أُنْمَتِ الْأَمِيرَةَ حَدِيثَهَا حَتَّى أَقْبَلَ شَابُّ بَادِي الْقُوَّةِ، لَمْ يَشْكُ الْأَمِيرُ حِينَ رَأَاهُ،
أَنَّهُ شَقِيقُ الْفَتَاةِ.

الفصل الخامس

(١) شقيق الأميرة

وَابْتَدَرَهُمَا الْفَتَى مُحِيًّا فِي ابْتِسَامٍ، وَأَدَبٍ وَاحْتِرَامٍ، مُرَحَّبًا بِالْأَمِيرِ «إِقْبَالٍ»، مُهْنِدًا شَقِيقَتَهُ عَلَى زِيَارَةِ الضَّيْفِ الْعَظِيمِ، فَتَعَجَّبَ الْأَمِيرَانِ مِمَّا رَأَيَا وَسَمِعَا، وَسَأَلَاهُ: «كَيْفَ عَرَفْتَ اسْمَ الْأَمِيرِ؟ وَمَنْ أَنْبَأَكَ بِقُدُومِهِ؟»

فَقَالَ لَهُمَا: «لَقَدْ عَرَفْتُ الْكَثِيرَ مِنْ أَخْبَارِهِ، وَبَقِيَ أَنْ تَعْرِفَا طَرَفًا مِنْ أَخْبَارِي!»
فَقَالَ الْأَمِيرَانِ: «مَا أَشَوْقَنَا إِلَى حَدِيثِكَ!»

فَقَالَ الْأَمِيرُ: «لَقَدْ أَبْحَرْتُ — كَمَا تَعَلَّمُ أُخْتِي الْعَزِيزَةَ — فِي نُخْبَةٍ مِنْ أَصْحَابِي لِزِيَارَةِ عَمِّي تَلْبِيَةَ لِدَعْوَتِهِ الْكَرِيمَةِ، وَاشْتَرَكْتُ مَعَهُ فِي الْإِحْتِفَالِ بِزَوَاجِ ابْنَتِهِ.

وَكَانَتْ الرَّحْلَةُ سَعِيدَةً مُوَفَّقَةً، وَأَقْمُنَا فِي ضِيَاغَتِهِ، وَكُنَّا كُلَّمَا هَمَمْنَا بِالْعَوْدَةِ شَدَّدَ عَلَيْنَا فِي الْبَقَاءِ، فَلَبِثْنَا فِي ضِيَاغَتِهِ أَكْثَرَ مِنْ عَامٍ. ثُمَّ أَدِنَ لَنَا بِالسَّفَرِ عَلَى كُرْهِ مِنْهُ، وَزَوَّدَنَا بِمَا مَلَأَ سَفِينَتَنَا مِنْ هَدَايَاهُ. وَأَوْدَعَنَا تَحِيَّةً لَكَ وَلَأَبِينَا وَشَعْبَهُ الْكَرِيمِ. ثُمَّ قَفَلْنَا عَائِدِينَ، فَقَضَيْنَا عِدَّةَ أَيَّامٍ فِي جَوْ طَيِّبٍ وَرِيحٍ مُعْتَدِلَةٍ، فَلَمَّا جَاءَ الْيَوْمُ الثَّلَاثَ عَشَرَ تَغَيَّرَتِ الرِّيحُ فَجَاءَتْ، وَهَبَّتِ الْعَاصِفَةُ شَدِيدَةً عَاتِيَةً تُنْذِرُنَا بِالْغَرَقِ بَيْنَ لَحْظَةٍ وَأُخْرَى، فَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ دَبَّ الْيَأْسُ إِلَى نُفُوسِنَا، فَتَرَكْنَا السَّفِينَةَ تَحْتَ رَحْمَةِ الرِّيَّاحِ الْهُوجِ، وَالْأَمْوَاجِ الثَّائِرَةِ. وَلَا تَسْأَلَا — أَيُّهَا الْعَزِيزَانِ — عَنْ دَهْشَتِنَا حِينَ كُتِبَتِ السَّلَامَةُ لِسَفِينَتِنَا. وَمَا نَدْرِي بِأَيَّةِ مُعْجَزَةٍ نَجَوْنَا مِنَ الْغَرَقِ، فَبَلَّغْنَا الْبَرَّ آمِنِينَ.

(٢) نَصِيحَةُ الْمَلَّاحِ

وَمَا إِنْ حَلَلْنَا بِالسَّاحِلِ، حَتَّىٰ بَدَأَ لَنَا الْمَكَانُ مَقْفَرًا لَا أُنَيْسَ بِهِ وَلَا دَيَّارَ، فَمَشِينَا نَرْتَادُ الْجَزِيرَةَ حَتَّىٰ بَلَّغْنَا غَابَةَ كَثِيفَةً. وَكَانَ مَعَنَا مَلَّاحٌ هَرِمٌ تَعَوَّدَ السَّفَرَ كَثِيرًا إِلَىٰ شَوَاطِئِ الْهِنْدِ مُنْذُ حَدَاتِهِ، فَحَدَّرْنَا مِنَ الْبَقَاءِ، وَنَصَحَنَا بِالْإِسْرَاعِ فِي تَرْكِ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ الْمُوحِشَةِ، وَحَدَّثَنَا أَنَّ سُكَّانَهَا طَائِفَةٌ مِنَ الْهَمَجِ يَعْبُدُونَ تُعْبَانًا هَائِلَ الْحَجْمِ، وَقَدْ تَعَوَّدُوا أَنْ يُقَدِّمُوا لَهُ كُلَّ مَنْ يُوقِعُهُ سُوءَ الْحَظِّ فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الْغُرَبَاءِ، فَيَلْتَهُمْ طَعَامًا سَائِغًا شَهِيًّا.

وَقَدْ نَصَحَنَا الْمَلَّاحُ الْمُجْرَبُ أَنْ نَعْجَلَ بِتَرْكِ الْجَزِيرَةِ الرَّاعِبَةِ قَبْلَ أَنْ يُقَدِّمَنَا أَهْلُهَا قُرْبَانًا لِمُعْبُودِهِمُ التُّعْبَانِ.

وَلَمَّا كَانَ «كَاشَفٌ» رُبَّانٌ سَفِينَتَنَا يَثِقُ بِذَلِكَ الْمَلَّاحِ، وَلَا يَشْكُ فِي خُبْرَتِهِ وَدُرْبَتِهِ، وَصَدَّقَ مَعْرِفَتَهُ بِمَسَالِكِ الْبِحَارِ، لَمْ يَتَرَدَّدْ فِي قَبُولِ نَصِيحِهِ، وَقَرَّرَ أَنْ يَسْتَأْنِفَ السَّيْرَ فِي صَبَاحِ غَدٍ. وَكَانَ نَعْمَ الرَّأْيِ لَوْ سَافَرْنَا فِي الْحَالِ وَلَمْ نُوجَلِ الرَّحِيلَ إِلَى الصَّبَاحِ. إِذْ نَ لَسَلِمْتَ سَفِينَتُنَا، وَنَجَا رَاكِبُوهَا. وَلَكِنْ لَا حِيلَةَ لِأَحَدٍ فِي رَدِّ عَادِيَةِ الْقَضَاءِ.

(٣) سُلْطَانُ الْهَمَجِ

وَخَرَجْتُ أَرْتَادُ الْجَزِيرَةَ فِي فَجْرِ الْيَوْمِ التَّالِيِ، فَرَأَيْتُ زَنْجِيَّةً مِنْ أَهْلِ الْجَزِيرَةِ، وَمَا إِنْ وَقَعَتْ عَلَيَّ عَيْنَاهَا حَتَّىٰ أَسْرَعْتُ بِالْفِرَارِ، فَلَمْ أَعْرِهَا انْتِبَاهًا، وَرَجَعْتُ إِلَىٰ أَصْحَابِي، وَلَبِئْتُ أَتَحَدَّثُ مَعَهُمْ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ، رَيِّمًا أَعَدَدْنَا الْعُدَّةَ لِلْسَّفَرِ. وَكَادَ يَنِمُّ لَنَا مَا أَرَدْنَا لَوْ لَمْ يَدْهَمْنَا أَهْلُ الْجَزِيرَةِ وَيُحِيطُوا بِنَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَيَقِيدُونَا بِالسَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ. وَقَدْ اسْتَوْلُوا عَلَىٰ سَفِينَتِنَا عَنَوَةً، وَأَنْتَهَبُوا كُلَّ مَا تَحْوِيهِ مِنْ هَدَايَا وَطَرَفٍ.

وَحَمَلْنَا الْهَمَجَ إِلَىٰ سُلْطَانِ الْجَزِيرَةِ أَسْرَى، فَشَهِدْنَا بَيُوتَهُمْ أَشْبَهَ بِالْأَكْوَاخِ وَالْأَعْمَاشِ مِنْهَا بِالْبُيُوتِ. وَرَأَيْنَا سُلْطَانَهُمْ «هَمَلَجَةً»، وَهَذَا هُوَ اسْمُهُ، مُسْتَوِيًّا عَلَىٰ عَرْشِ مَبْنِي بِالْحِجَارَةِ، مَرْخَرَفٍ بِالْأَصْدَافِ، وَهُوَ عَمَلَقٌ فَارِعُ الطُّولِ، ضَخْمُ الْجُتَّةِ، مَدِيدُ الْقَامَةِ، عَظِيمُ الْهَامَةِ، بَشِعُ الْمُنْظَرِ، دَمِيمُ السَّحْنَةِ، أَشْبَهُ بِشَيْطَانٍ مِنْهُ بِإِنْسَانٍ. وَكَانَتْ بِنْتُهُ

الأميرة «هُسْناراً»، وهي أَقْبَحُ مَنْ أْبِيهَا سَحْنَةً، وَأَضْحَمُ مِنْهُ جُبَّةً، جَالِسَةً بِجَانِبِهِ، وَلَمْ تَكُنْ تَزِيدُ عَلَى الثَّلَاثِينَ مِنْ عُمْرِهَا. وَقَدْ اضْطَرَّنا وَزِيرُ الِهَمَجِّ، حِينَ مَثَلْنَا بَيْنَ يَدَيْ سُلْطَانِهِ أَنْ نُقَدِّمَ وَاِفْرَ الاحْتِرَامِ.
ثُمَّ قَصَّ الْوَزِيرُ عَلَى السُّلْطَانِ وَبِنْتِهِ: كَيْفَ عَثَرَتِ الْجَارِيَةُ عَلَيْنَا، وَاهْتَدَتْ إِلَيْنَا.

(٤) طعام الثُّعْبَانِ

فَابْتَهَجَ السُّلْطَانُ، وَشَكَرَ لَوْزِيرِهِ وَجَارِيَتِهِ وَأَعْوَانِهِ، مَا وَفَّقُوا إِلَيْهِ مِنْ صَيْدٍ ثَمِينٍ. ثُمَّ أَمَرَ بِحَبْسِنَا فِي مَغَارَةِ الْأَسْرَى لِيُقَدِّمَ وَاحِدٌ مِنَّْا فِي صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ قُرْبَانًا لِمَعْبُودِهِمُ الْأَفْعَوَانَ الْعَظِيمِ.
فَأَطَاعَ الْوَزِيرُ أَمْرَ سُلْطَانِهِ، وَذَهَبَ بِنَا إِلَى الْمَغَارَةِ، حَيْثُ قَدَّمُوا لَنَا — وَفَقَ تَقَالِيدِهِمْ — أَلْوَانًا مِنَ الطَّعَامِ، أَلْفُوا أَنْ يُسَمَّنُوا بِهَا الضَّحَايَا وَالْقِرَابِينَ، قَبْلَ أَنْ يُقَدِّمُوهَا لِلْأَفْعَوَانَ الْمَعْبُودِ.
وَمَرَّتْ بِنَا الْأَيَّامُ؛ يُقَدِّمُ — فِي كُلِّ يَوْمٍ — وَاحِدٌ بَعْدَ آخَرَ، وَيَتَنَاقَصُ عَدَدُنَا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، حَتَّى هَلَكَ رُكَّابُ السَّفِينَةِ وَمَلَّأُوهَا، وَلَمْ يَبْقَ مَعِيَ غَيْرُ «كَاشِفِ» رُبَّانِ السَّفِينَةِ، فَسَهَرْنَا لَيْلَتَنَا نَتَرَقَّبُ مَصْرَعَ أَحَدِنَا فِي صَبَاحِ غَدٍ كَمَا صُرِعَ أَصْحَابُنَا مِنْ قَبْلِنَا، وَنَنْتَظِرُ حُضُورَ الْعِمْلَاقِينَ لِيُفَرِّقَانَا إِلَى الْأَبَدِ.



(٥) وداع الرُّبَّان

وَلَمَّا دَنَا الْمَوْعِدُ نَظَرَ إِلَيَّ «كَاشِفٌ» مَحْزُونًا، وَقَالَ: «لَقَدْ فَقَدْنَا كُلَّ أَمَلٍ فِي النِّجَاةِ
وَاحْسَرَتَاهُ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ أَيَّامِنَا فِي الْحَيَاةِ غَيْرُ يَوْمَيْنِ اثْنَيْنِ. وَلَيْسَ لِي أُمْنِيَّةٌ إِلَّا أَنْ يُقَدَّمَ
يَوْمٌ مَصْرَعِي عَلَى مَصْرَعِ سَيِّدِي الْأَمِيرِ؛ فَمَا أُطِيقُ أَنْ أَرَى مَوْلَايَ الْأَمِيرَ يُسَاقُ إِلَى الْمَوْتِ
وَأَنَا عَاجِزٌ عَنْ نَصْرَتِهِ.»

فَقُلْتُ لـ«كَاشِفٍ»: «مَا أَتَعَسَ حَظُّكَ أَيُّهَا الصَّدِيقُ الْعَزِيزُ! لَقَدْ بَدَلْتُ جُهْدِي فِي
إِقْنَاعِكَ بِالْعُدُولِ عَنْ مُصَاحَبَتِي فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ. وَلَكِنَّ سُوءَ حَظِّكَ أَبِي إِلَّا أَنْ تَلْحَ فِي
مُصَاحَبَتِي. وَلَوْلَا إِلْحَافُكَ لَنَجَّوْتَ مِنْ هَذَا الْمَصْرَعِ الْمَفْرِعِ!»
وَمَا إِنْ أَتَمَّمْتُ كَلَامِي حَتَّى أَقْبَلَ الْعَمَلِقَانَ، وَأَمْرَانِي أَنْ أَتْبَعَهُمَا.

فَلَمْ أَجْزَعْ لِنَدِكَ، وَلَمْ أَنْهَيْبْ هَذَا الْمَصِيرَ؛ فَقَدْ كُنْتُ أترَقَّبُهُ وَأَتَاهَبُ لَهُ، فَالْتَفَتُّ
إِلَى الرُّبَّانِ أُودِعُهُ الْوَدَاعَ الْأَخِيرَ الْأَبَدِيَّ، فَاشْتَدَّ جَزَعُهُ عَلَيَّ، وَتَمَنَّى لَوْ قُدِّمَ قَبْلِي قُرْبَانًا
لِلتُّعْبَانِ.



(٦) أَمِيرَةُ الْهَمَجِ

ثُمَّ صَحِبَنِي الْعَمَلِقَانِ إِلَى حَيْمَةِ فَسِيحَةٍ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّي مَلَقَ فِيهَا مَعْبُودَهُمُ الْأَفْعَوَانَ،
وَلَكِنْ حَدَّثَ مَا لَمْ يَكُنْ فِي حِسْبَانِ، فَقَدْ رَأَيْتُ امْرَأَةً مِنَ الْهَمَجِ تُقْبِلُ عَلَيَّ بِاسْمَةٍ،
وَتَقُولُ لِي مُطْمَئِنَّةً: «لَا تَخَفْ أَيُّهَا الْفَتَى، وَلَا تَحْزَنْ، فَلَنْ يُصِيبَكَ مَا أَصَابَ أَصْحَابَكَ.
لَقَدْ كَانَ مِنْ حَسَنِ حَظِّكَ أَنْ مَوْلَاتِي الْأَمِيرَةَ «هُسْنَارًا» رَضِيَتْ عَنْكَ، وَادَّخَرَتْ لَكَ حَظًّا

سَعِيدًا؛ فَهَنِيئًا لَكَ مَا ظَفَرْتَ بِهِ. وَلَنْ أَفْضِيَ إِلَيْكَ بِأَكْثَرِ مِمَّا قُلْتُ، فَإِنَّهَا سَتَفَاجِئُكَ بِمَا
الْخَرْتُهُ لَكَ مِنْ سَعَادَةٍ. وَلَا تَنْسَ أَنَّي مُسْتَشَارَةُ الْأَمِيرَةِ وَجَارِيَتُهَا الْمُخْتَارَةُ. وَقَدْ أَدْنَتْ
لِي مُتْقَضَلَةً فِي أَنْ أُتِيحَ لَكَ شَرَفَ الْمُثُولِ بَيْنَ يَدَيْهَا، فَطَبَّ نَفْسًا، وَقَرَّ عَيْنًا؛ فَإِنَّكَ مُلَاقِيهَا
بَعْدَ لَحَظَاتٍ.»

وَأَنْصَرَفَ الْخَادِمَانِ، وَأَمْسَكَتْ جَارِيَةً «هُسْنَارًا» بِيَدِي، وَقَادَتْنِي إِلَى مَخْدَعِ الْأَمِيرَةِ،
فَرَأَيْتُهَا تَجْلِسُ وَحْدَهَا عَلَى إِحْدَى الْأَرَائِكِ الْمُغَطَّةِ بِجُلُودِ النُّمُورَةِ وَالْأَسُودِ وَالْفُهُودِ.
وَرَأَيْتُ لَهَا وَجْهًا زَيْتُونِي اللَّوْنِ، تَبْرُقُ فِيهِ عَيْنَانِ ضَيِّقَتَانِ، يَتَخَلَّلُهُمَا أَنْفٌ كَبِيرٌ أَفْطَسٌ،
رُكَّبٌ عَلَى شَفَتَيْنِ غَلِيظَتَيْنِ، تَنْطَبِقَانِ عَلَى فَمٍ وَاسِعٍ، وَتَنْفَرِجَانِ عَنْ أَسْنَانٍ كَبِيرَةٍ الْحَجْمِ،
عَنْبَرِيَّةِ اللَّوْنِ. وَيَعْلُو رَأْسَهَا شَعْرٌ قَصِيرٌ جَعْدٌ، فِي مِثْلِ لَوْنِ الْأَبْنُوسِ أَوْ هُوَ أَشَدُّ سَوَادًا
مِنْهُ، وَفَوْقَهُ قَلَنْسُوءَةٌ صَفْرَاءُ مُطْرَزَةٌ بِخَيْطٍ أَحْمَرَ. وَفِي جِيدِهَا (رَقَبَتِهَا) عِقْدٌ مِنَ الْخَرَزِ
كَبِيرِ الْحَجْمِ، يَزِينُهُ رِيَشٌ مُخْتَلَفِ الْأَلْوَانِ، بَعْضُهُ أَرْزُقٌ، وَبَعْضُهُ أَصْفَرٌ. وَقَدْ ارْتَدَّتْ
ثَوْبًا ضَافِيًا مِنْ فِرَاءِ النُّمُورَةِ، يُعْطِي جِسْمَهَا مِنْ كِتْفَيْهَا إِلَى قَدَمَيْهَا.

وَكَانَ مَنْظَرُ «هُسْنَارًا» يُدْكَرْنِي — كُلَّمَا تَمَثَّلْتُهَا — بِصُورَةِ الشَّيْطَانِ كَمَا أَتَخَيَّلُهُ،
وَرُبَّمَا أَشْبَهَتِ الْقُرُودَ فِي سَمَاجَةِ هَيْئَتِهَا، وَإِنْ خَالَفَتْهَا فِي خِفَتِهَا، وَرَشَاقَةِ حَرَكَتِهَا.
وَمَا إِنْ رَأَيْتَنِي حَتَّى ابْتَدَرْتَنِي قَائِلَةً: «لَا عَلَيْكَ أَيُّهَا الْفَتَى. طَبَّ نَفْسًا، وَقَرَّ عَيْنًا؛
فَلَنْ تَلْقَى عِنْدِي إِلَّا خَيْرًا. نَعَالَ فَاجْلِسْ إِلَى جَانِبِي، لِأَسْمِعَكَ مَا أَعَدَدْتُ لَكَ مِنْ بَشَرِيَّاتٍ.
لَقَدْ أَقْبَلْتُ عَلَيْكَ السَّعَادَةَ، فَيَسَّرْتُ لَكَ سَبِيلَ النِّجَاةِ مِنَ الْهَلَاكِ، وَالْخَلَاصِ مِمَّا لَقِيَهُ
أَعْوَانُكَ مِنْ مَصَارِعِ السُّوءِ.»

ثُمَّ صَمَتَتْ «هُسْنَارًا» قَلِيلًا، وَاسْتَأْنَفَتْ قَائِلَةً: «حَسْبُكَ سَعَادَةٌ أَنَّنِي أُعْجِبْتُ بِمَا
رَأَيْتَهُ مِنْ شَجَاعَتِكَ، وَرِبَاطَةِ جَاشِكَ (ثَبَاتِ قَلْبِكَ)، وَاسْتِهَانَتِكَ بِالْمَوْتِ، فَعَزَمْتُ عَلَى
مُكَافَأَتِكَ عَلَى مَا تَمَيَّزْتَ بِهِ مِنْ خِلَالِ نَبِيلَةٍ، وَشَمَائِلِ عَالِيَةٍ، وَضَاعَفْتُ لَكَ الْجَزَاءَ،
وَأَجَزَلْتُ الْعَطَاءَ، فَلَمْ أَقْتَصِرْ عَلَى إِنْقَاذِكَ مِنَ الْمَوْتِ، بَلْ اخْتَرْتُكَ زَوْجًا لَوْلِيَّةِ الْعَهْدِ
«هُسْنَارًا» أَمِيرَةِ الْبَحْرِ. أَعْرِفْتُ أَيَّ مُفَاجَأَةٍ سَارَّةٍ أَعَدَدْتُهَا لَكَ، أَيُّهَا الْمُحْظُوظُ السَّعِيدُ؟
سَتُصْبِحُ سُلْطَانَ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ بَعْدَ وَفَاةِ أَبِي. أَرَأَيْتَ كَيْفَ آثَرْتُكَ (فَضَّلْتُكَ) عَلَى صَفْوَةِ
خَاصَّتِي، وَسَرَاةِ مَمْلَكَتِي؟»

(٧) مَادِبَةُ الْهَرَّةِ

أَيُّ نَبِيٍّ هَائِلٍ سَكَتَ أُذُنِي بِهِ؟ بَلْ أَيُّ شَقَاءٍ أَعَدَّتْهُ لِي؟ إِنَّ الْمَوْتَ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ هَذِهِ الْخَاتِمَةِ الْمُفْرَعَةِ. إِنَّ بَدَنِي لَيَقْشَعُرُ كُلَّمَا طَافَتْ بِرَأْسِي ذِكْرِيَاتُ ذَلِكَ الصَّبَاحِ الْمَشْتُومِ. وَسُرْعَانَ مَا تَمَثَّلَتْ تِلْكَ الطَّرْفَةُ الَّتِي قَصَّهَا عَلَيْنَا مُعَلِّمُنَا، وَنَحْنُ طِفْلَانِ.

فَسَأَلْتُهُ أُخْتَهُ: «أَيُّ طَرْفَةٍ تَعْنِي؟ فَمَا أَكْثَرَ مَا أَمْنَعُنَا بِهِ مُعَلِّمُنَا مِنْ طَرَائِفَ وَمَلِحٍ!»

فَقَالَ: «أَلَا تَذْكُرِينَ قِصَّةَ الْهَرَّةِ (الْقِطَّةِ) الَّتِي كَانَ سَيِّدُهَا يُكْرِمُهَا، وَيُوَالِي بِرَّهُ بِهَا، وَعَطْفُهُ عَلَيْهَا، بِمَا يُقَدِّمُ لَهَا مِنْ دَجَاجٍ وَبِطٍّ وَحَمَامٍ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ لَذِيذِ الطَّعَامِ، فَلَمْ تَجِدِ وَسِيلَةَ لِشُكْرِهِ عَلَى مَا غَمَرَهَا بِهِ مِنْ جَمِيلٍ إِلَّا أَنْ تُكَافِئَهُ بِفَارَةٍ اصْطَادَتْهَا، لِيَنْعَمَ بِضِيَاغَةِ الْهَرَّةِ كَمَا نَعِمْتُ بِضِيَاغَتِهِ. مَا أَشْبَهَ مَا صَنَعْتَهُ الْهَرَّةُ بِمَا صَنَعْتَ «هُسْنَارًا»! كَلْتَاهُمَا لَا تَعْرِفُ أَنَّ لَحْمَ الْفِرَّانِ لَا يَصْلُحُ طَعَامًا لِلْإِنْسَانِ!

(٨) غُرُورُ «هُسْنَارًا»

وَكَانَ خَوْفِي مِنْ غَضَبِ هَذِهِ الْحَمَقَاءِ يَحُولُ دُونَ مُكَاشَفَتِهَا بِمَا مَلَأَ نَفْسِي مِنْ نُفُورٍ وَاحْتِقَارٍ، وَمَا أَقَعَمَ قَلْبِي مِنْ كِرَاهِيَّةٍ وَأَشْمِئْزَانٍ، فَأَثَرْتُ الصَّمْتَ جَوَابًا.

فَقَالَتْ «هُسْنَارًا»: «مَا بِالْكَ صَامِتًا لَا تَنْطِقُ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ؟ لَا رَيْبَ أَنَّ مَا فَاجَأَتْكَ بِهِ مِنْ سَعَادَةٍ لَا تَخْطُرُ بِالْبَالِ، قَدْ أَذْهَلَكَ وَعَقَدَ لِسَانَكَ مِنْ فَرَطِ السُّرُورِ. الْحَقُّ مَعَكَ، فَمَا كَانَ يَدُورُ بِخَلْدِكَ أَنْ يَقَعَ اخْتِيَارُ بِنْتِ سُلْطَانِ الْجَزِيرَةِ عَلَى أَسِيرٍ مِثْلِكَ، فَتُكْتَبَ لَهُ السَّلَامَةُ مِنْ مَصْرَعٍ وَخِيمٍ، وَيَتَبَدَّلَ شَقَاؤُهُ بِحَظٍّ عَظِيمٍ. إِنَّ صَمْتَكَ ذَلِيلٌ إِخْلَاصِكَ وَاعْتِرَافِكَ بِمَا أُسَدَيْتِ إِلَيْكَ مِنْ جَمِيلٍ.»

وَلَمَّا أْتَمَّتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ قَدِمْتُ لِي إِحْدَى يَدَيْهَا لِأُقْبِلَهَا، فَقَبَّلْتَهَا عَلَى مَضْضٍ. وَكَانَ اقْتِنَاعُهَا بِجَمَالِهَا، وَثِقَتُهَا بَأَنَّ كُلَّ مَنْ يَرَاهَا سَيَقْضِلُهَا عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِ قَاطِبَةً، أَشْبَهَ بِاقْتِنَاعِ تِلْكَ الْهَرَّةِ بِأَنَّ لَحْمَ الْفِرَّانِ أَشْهَى غِذَاءٍ وَأَلَذُّ طَعَامٍ.

وَقَدْ حَايَلَهَا غُرُورُهَا أَنَّ مَا رَأَتْهُ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ أَمَارَاتِ الْحَيْرَةِ وَالسُّخْطِ وَالْإِشْمِئْزَانِ، دَلِيلٌ نَاطِقٌ عَلَى فَرَطِ إِعْجَابِي بِحُسْنِهَا، وَأَفْتِنَانِي بِجَمَالِهَا. وَسُرْعَانَ مَا

أَقْبَلْتُ جَارِيَتَانِ، وَفَرَشْتَا عَلَى الْأَرْضِ نَفَائِسَ مِنْ فِرَاءِ النُّمُورَةِ وَالسَّبَاعِ وَالْفُهُودِ. ثُمَّ جَاءَتْ جَوَارٍ ثَلَاثٌ بِمَائِدَةٍ عَلَيْهَا صَحَافٌ مَمْلُوءَةٌ بِشَرَائِحِ اللَّحْمِ الْمَغْمُورِ فِي الْعَسَلِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ غَرِيبٍ مَا أَلْفُوهُ مِنْ أَلْوَانِ الْأَطْعِمَةِ.

ثُمَّ أَشَارَتِ الْأَمِيرَةُ إِلَيَّ أَنْ أَجْلِسَ إِلَى جَانِبِهَا عَلَى فَرُودَةٍ نَمِرٍ لِأَشْرَكِهَا فِي الطَّعَامِ، فَأَذْعَنْتُ لِأَمْرِهَا كَارِهَا، وَازْدَرَدْتُ لِقِيَمَاتِ. وَكَانَتِ الْأَمِيرَةُ تُشَجِّعُنِي عَلَى الْإِسْتِزَادَةِ مِنْ طَعَامِهَا، وَتَقُولُ لِي بَيْنَ حَيْنٍ وَآخَرَ: «مَاذَا بَكَ أَيُّهَا الْفَتَى؟ مَا بِالْكَ لَا تُقْبَلُ عَلَى الطَّعَامِ؟ لَا رَيْبَ أَنْ مَا فَاجَأَتْكَ بِهِ مِنْ بُشْرِيَّاتٍ قَدْ شَغَلَكَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَا أَرَاكَ إِلَّا مُتَعَجِّلاً تَحْقِيقَ وَعْدِي. الْحَقُّ مَعَكَ يَا فَتَى، فَخَيْرُ الْبِرِّ عَاجِلُهُ، هَا أَنَا ذِي مُسْرَعَةٍ إِلَى مُقَابَلَةِ أَبِي لِأَرْجُوهُ أَنْ يَسْتَنْبِئِي لِي حَيَاتِكَ وَحَيَاةَ صَاحِبِكَ الَّذِي اخْتَارْتَهُ جَارِيَّتِي الْوَفِيَّةَ «مَهْرَفِيَا» رَوْجًا لَهَا.»

وَلَمَّا أَمَّتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ أَذْنَتْ لِي بِالْخُرُوجِ، وَقَالَتْ لِي وَهِيَ تُودِّعُنِي: «عُدْ إِلَى خَيْمَتِكَ أَيُّهَا الْفَتَى، وَبِنَيِّْ صَاحِبِكَ أَنَّ السَّعَادَةَ مُقْبِلَةٌ عَلَيْهِ، وَأَنَّ زَوَاجَهُ بِوَصِيْفَتِي الْمُخْتَارَةِ «مَهْرَفِيَا» سَيَتِمُّ مَعَ زَوَاجِكَ بِي. عَجِّلْ إِلَيْهِ بِهَذِهِ الْبُشْرَى، وَاشْكُرْ الْحَظَّ السَّعِيدَ الَّذِي أَفْرَدَكُمَا مِنْ بَيْنِ إِخْوَانِكُمَا بِالنَّجَاةِ مِنَ الْهَلَاكِ، وَأَتَاخَ لِكَيْتُكُمَا أَنْ تَتَّعَمَا بِالسَّعَادَةِ الْكَامِلَةِ. طَيِّبَا نَفْسًا، وَقَرِّأَا عَيْنًا؛ فَإِنِّي مُحَقِّقَةٌ لَكُمَا رَجَاءَكُمَا، وَمُبْلَغَتُكُمَا أُمْنِيَّتُكُمَا، وَسَتَتَّعَشِيَانِ مَعِي هَذِهِ اللَّيْلَةَ حِينَ تَكْفُ شُعْلَةُ النَّهَارِ عَنْ إِضَاءَةِ الْجَزِيرَةِ السَّعِيدَةِ. وَلِيُبَارِكَ مَعْبُودُنَا الْأَفْعَوَانُ الْعَظِيمُ فِي حَيَاتِنَا الْمَدِيدَةِ.»

فَتَظَاهَرْتُ بِشُكْرِ «هُسْنَارَا» أَمِيرَةِ الْهَمَجِ، عَلَى مَا أَسَدَتْهُ مِنْ فَضْلِ عَمِيمٍ، وَأَنَا أَلْعَنُهَا فِي نَفْسِي، وَأَفْضَلُ الْمَوْتَ عَلَى الزَّوْاجِ بِهَذِهِ الشَّيْطَانَةِ. ثُمَّ نَادَتِ الْأَمِيرَةُ بَعْضَ خَدَمِهَا لِيَذْهَبَ بِي إِلَى خَيْمَتِي.

(٩) مُنَاقَشَةُ حَزِينَةٍ

وَلَا تَسَلْ عَنْ فَرَحِ «كَاشِفِ» حِينَ رَأَيْتَ قَادِمًا عَلَيْهِ بَعْدَ يَأْسٍ مِنْ تَلَاقِنَا، فَقَدْ عَاوَدَهُ الْأَمَلُ فِي النَّجَاةِ، بَعْدَ أَنْ يَبْسَ مِنَ الْحَيَاةِ، فَقَالَ: «مَا أَسْعَدَهَا مُفَاجَأَةً! وَأَفْرَحَتَاهُ! هَا

أَنْتَ ذَا يَا أَمِيرِي الْعَزِيزَ، لَا تَزَالُ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ، فَهَلْ أَطْمَعُ فِي نَجَاتِكَ مِنَ الْأَفْعَوَانِ
وَعَوَدَتِكَ إِلَى مَمْلَكَتِكَ؟!»

فَقُلْتُ لَهُ مَحْزُونًا: «لَقَدْ كُتِبَتْ لِي السَّلَامَةُ مِنَ الْهَلَاكِ، وَالنَّجَاةُ مِنَ الْخَاتِمَةِ الْفَاجِعَةِ
الَّتِي انْتَهَتْ بِهَا حَيَاةُ رِفَاقِنَا الْأَعْرَاءِ. وَلَكِنْ ...»

فَقَاطَعَنِي قَائِلًا: «يَا لَهَا مِنْ مُفَاجَأَةٍ سَعِيدَةٍ! وَلَكِنْ حَبْرَنِي: أَوَأْتُقُ أَنْتَ مِمَّا تَقُولُ؟
أَتَرَكَ نَجْوَتَ مِنَ الْأَفْعَوَانِ؟ حَبَدًا لَوْ صَدَقَتِ الْأَمَانِي وَصَحَّتِ الْأَحْلَامُ!»

فَأَجَبْتُهُ مُنْجِمَهُمُ الْوَجْهِ عَابِسًا: «لَيْتَكَ تُصْغِي إِلَى بَقِيَّةِ الْحَدِيثِ! قُلْتَ لَكَ: إِنَّنِي
نَجَوْتُ مِنَ الْأَفْعَوَانِ، وَلَكِنْ تَحْقِيقَ هَذِهِ الْأُمْنِيَّةِ سَيُكَلِّفُنِي أَفْدَاحَ الْأَثْمَانِ. وَسَتَرَى كَيْفَ
يَبْدُلُ سُرُورِكَ حُزْنًا إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ فَقْدَانَ الْحَيَاةِ أَيْسَرُ مِنْ أَدَاءِ هَذَا النَّمَنِ!»

فَقَالَ لِي «كَاشَفُ» مُتَعَجِّبًا: «شَدَّ مَا غَلَوْتَ يَا سَيِّدِي الْأَمِيرَ وَأَسْرَفْتَ! وَهَلْ فِي الدُّنْيَا
أَثْمَنُ مِنَ الْحَيَاةِ؟»

فَقُلْتُ لَهُ: «لَا تَعْجَلْ بِحُكْمِكَ..» وَقَصَّصْتُ عَلَيْهِ مَا فَاجَأَتْنِي بِهِ الْأَمِيرَةَ مِنْ رَغْبَةٍ فِي
الزَّوْاجِ بِي.

فَقَالَ لِي مُوسِيًّا: «لَا رَيْبَ أَنَّكَ عَلَى حَقٍّ. وَلَكِنَّ الْحَيَاةَ جَمِيلَةً عَلَى كُلِّ حَالٍ. وَعَزِيزٌ
عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَمُوتَ فِي مُقْتَبَلِ شَبَابِهِ، فَجَاهِدْ فِي التَّغَلُّبِ عَلَى نَفْسِكَ، وَأَدْعِنِ لِحُكْمِ
الضَّرُورَةِ. وَلَا تَنْسَ أَنَّ الْحَازِمَ هُوَ مَنْ يُوَازِنُ بَيْنَ الْمُصِيبَتَيْنِ، فَيَخْتَارُ أَهْوَنَ الشَّرَّيْنِ!»

فَصَحْتُ بِهِ قَائِلًا: «أَيُّ نَصِيحَةٍ هَذِهِ الَّتِي تُقَدِّمُهَا لِي؟ هَلْ يَدُورُ بِخَلْدِكَ أَنَّي
أَسْتَطِيعُ اتِّبَاعَهَا وَالْعَمَلَ بِهَا؟ سَنَرَى مَاذَا أَنْتَ صَانِعٌ؟ وَهَلْ سَتَتَّبِعُ الرَّأْيَ الَّذِي تُشِيرُ
بِهِ عَلَيَّ، حِينَ تَعْلَمُ أَنَّ «مَهْرَفِيَا» وَصِيفَةَ «هُسْنَارَا» قَدْ اخْتَارَتَكَ زَوْجًا لَهَا، وَجَعَلَتْ ذَلِكَ
ثَمَنًا لِخَلَاصِكَ مِنَ الْهَلَاكِ؟ فَمَاذَا أَنْتَ قَائِلٌ؟ لَقَدْ اخْتَارَتَكَ وَهِيَ لَيْسَتْ أَكْثَرَ جَمَالًا مِنْ
مَوْلَاتِهَا. أَتَرَكَ مُسْتَعْدًّا لِانْتِهَازِ هَذِهِ الْفُرْصَةِ الذَّهَبِيَّةِ النَّادِرَةِ؟»

وَسُرْعَانَ مَا انْتَفَضَ «كَاشَفُ» مُتَفَرِّعًا، وَامْتَقِعَ لِهَوْلِ مَا يَسْمَعُ، فَابْتَدَرَنِي قَائِلًا:
«وَاحْسَرَتَاهُ! يَا لَهُ مِنْ خَبَرٍ صَاعِقٍ! أَيْمِكُنْ أَنْ يَكُونَ مَوْلَايَ جَادًّا فِيمَا يَقُولُ؟ إِنَّ لِقَاءَ
الْأَفْعَوَانِ أَهْوَنُ عَلَى نَفْسِي مِنْ لِقَاءِ هَذِهِ الْغُولِ! بَلْ إِنَّنِي لِأَفْضَلُ أَنْ يَكُونَ لِي أَلْفُ نَفْسٍ
— يَلْتَهُمُهَا التُّعْبَانُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى — عَلَى أَنْ أُبْتَلَى بِهَذِهِ الْمُصِيبَةِ!»

فَقُلْتُ لَهُ مُدَاعِبًا سَاخِرًا: «مَا أَعْجَبَ أَمْرَكَ! وَمَا أَسْرَعَ مَا نَسِيتَ نَصِيحَتَكَ وَتَنَكَّرْتَ لِرَأْيِكَ! أَلَمْ تَقُلْ لِي: إِنَّ الْحَيَاةَ جَمِيلَةٌ عَلَى أَيِّ حَالٍ، وَإِنَّ بَعْضَ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ، وَإِنَّ الْحَازِمَ الْفَطْنَ هُوَ مَنْ يَعْرِفُ كَيْفَ يَخْتَارُ بَيْنَهُمَا؟ فَإِذَا كَانَ الْمَوْتُ لَا يُخِيفُكَ، فَكَيْفَ تُرِيدُنِي عَلَى أَنْ أَخَافَهُ؟ أَنْسَيْتَ مَا قَالَهُ الْحَكِيمُ الْعَظِيمُ «بُرْجَمَهُرُ» لِمَلِيكِهِ، حِينَ سَأَلَهُ نَاتِ يَوْمٍ: «مَا الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنَ الْحَيَاةِ؟ وَمَا الَّذِي هُوَ شَرٌّ مِنَ الْمَوْتِ؟ أَتَعْرِفُ بِمَاذَا أَجَابَهُ؟»

فَقَالَ «كَاشِفٌ»: «أَمَّا الَّذِي هُوَ شَرٌّ مِنَ الْمَوْتِ فَهُوَ الزَّوْجُ بِمَثَلِ هَذِهِ الشَّيْطَانَةِ! فَكَيْفَ قَالَ الْحَكِيمُ؟»

فَقُلْتُ لَهُ: «كَانَ نِصْفُ جَوَابِهِ قَرِيبًا مِمَّا سَمِعْتَهُ مِنْكَ؛ فَقَدْ قَالَ لِمَلِيكِهِ: «أَمَّا الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنَ الْحَيَاةِ فَهُوَ مَا لَا تَطِيبُ الْحَيَاةَ إِلَّا بِهِ. وَأَمَّا الَّذِي هُوَ شَرٌّ مِنَ الْمَوْتِ فَهُوَ مَا يُنَمِّنِي الْمَوْتَ مِنْ أَجْلِهِ!»

فَقَالَ لِي «كَاشِفٌ»: «مَا أَصَدَقَ مَا قَالَ!»

(١٠) الْفِرَارُ مِنَ الْجَزِيرَةِ

وَلَبِثْتُ مَعَ «كَاشِفٍ» نَقَلْتُ آرَاءَنَا عَلَى كُلِّ وَجْهِ، حَتَّى أَحْكَمْنَا خُطَّةً لِلْفِرَارِ مِنَ الْجَزِيرَةِ الْمَشْهُومَةِ. وَسَنَحَتْ لَنَا الْفُرْصَةُ لِتَحْقِيقِ مَا أُرَدْنَا، بَعْدَ أَنْ وَثِقَتْ بِنَا الْأَمِيرَةُ وَمُسْتَشَارَتُهَا، وَأَطْلَقَتَنَا مِنَ الْأَسْرِ، وَأَذِنَتْ لَنَا فِي التَّجْوَالِ، وَارْتِيَادِ أَنْحَاءِ الْجَزِيرَةِ كَمَا نَشَاءُ. وَسَاعَفْنَا الْحِظَّ بَعْدَ سَاعَاتٍ، فَوَجَدْنَا زَوْرَقًا صَغِيرًا مِنْ زَوَارِقِ الصَّيَّادِينَ مَرْبُوطًا إِلَى وَتِدٍ بِحَبْلِ مَتِينٍ، فَحَلَلْنَاهُ وَأَنْطَلَقْنَا بِهِ فِي عُرْضِ الْبَحْرِ مُسْرِعِينَ، وَمَا إِنْ بَعَدْنَا عَنِ الشَّاطِئِ حَتَّى فَطَنَ بَعْضُ الْهَمَجِ إِلَى فِرَارِنَا، فَاذْدَفَعُوا إِلَى الشَّاطِئِ غَاضِبِينَ، وَرَاحُوا يَتَوَعَّدُونَنَا مُزْمَجِرِينَ. وَسَمِعْنَا وَزِيرَ الْهَمَجِ يُبْرِطُ وَيَرْطُنُ، فَلَمْ نُبَالِ بِوَعِيدِهِ، وَلَمْ نَعْبَأْ بِتَهْدِيدِهِ بَعْدَ أَنْ أَوْعَلْنَا فِي الْبَحْرِ، وَأَصْبَحْنَا بِمَنْجَاةٍ مِنْ شَرِّ الْهَمَجِ. وَعِنْدَمَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ كَانَتْ الْجَزِيرَةُ قَدْ غَابَتْ عَنَّا نَاطِرِينَ.

فَشَكَرْنَا اللَّهَ — سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى — لِنَجَاتِنَا، وَشَعَرْنَا بِسُرُورٍ عَظِيمٍ. وَشَغَلْنَا فَرَحُنَا
بِالْخَلَاصِ مِنَ الْهَمَجِ عَمَّا يُوَاجِهُنَا مِنْ نَفَادِ الزَّادِ وَأَخْطَارِ الْبَحْرِ وَتَوَرَّةِ الْأَمْوَاجِ، وَمَا
يَنْهَدُّ زُورَقَنَا مِنَ الْغَرَقِ بَيْنَ حِينٍ وَحِينٍ.
وَلَا عَجَبَ فِي ذَلِكَ؛ فَقَدْ كَانَ الْمَوْتُ غَرَقًا أَيْسَرَ عَلَيْنَا، وَأَبْهَجَ لِقَلْبَيْنَا، مِنْ الْإِقَائِنَا بَيْنَ
فَكِّي الثُّعْبَانِ، أَوْ مُصَاهَرَتِنَا لِذَلِكَ السُّلْطَانِ.

الفصل السادس

(١) جَنَّةُ الْبَحْرِ

وَانْطَلَقَ بِنَا الزُّورُ فِي عُرْضِ الْبَحْرِ عَلَى غَيْرِ هُدًى، حَتَّى لَاحَتْ لَنَا تَبَاشِيرُ الصُّبْحِ، فَحَلَّلْنَا جَزِيرَةً كَثِيرَةَ الْأَنْهَارِ، وَارِفَةَ الْأَشْجَارِ، دَانِيَةَ الثَّمَارِ، تَكَادُ غُصُونُهَا تَمَسُّ الْأَرْضَ لَوْفَرَةٍ مَا تَحْمِلُ مِنْ نَاضِحِ الْفَاكِهَةِ. وَكَانَتْ تُحَلِّلُ لِمَنْ يَرَاهَا أَنَّهَا جَنَّةٌ مِنْ جَنَّاتِ الْأَرْضِ. وَكَانَ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ قَدْ جَهَدَانَا وَبَرَّحَا بِنَا، فَأَكَلْنَا مِنْ لَذَائِدِ فَاكِهَتِهَا، وَارْتَوَيْنَا مِنْ عَذْبِ مَائِهَا، وَحَمَدْنَا اللَّهَ الَّذِي أَطْعَمَنَا مِنْ جُوعٍ، وَآمَنَنَا مِنْ خَوْفٍ.

وَجَلَسْنَا نَعْرِضُ مَا مَرَّ بِنَا مِنْ أَحْدَاثٍ وَأَهْوَالٍ، فَضَحَكُ مُتَفَكِّهِينَ، بَعْدَ أَنْ نَجَوْنَا مِنَ الْخَطَرِ وَضَمِنَّا السَّلَامَةَ.

وَعَجِبْنَا كَيْفَ حَلَّتْ هَذِهِ الْجَنَّةُ النَّاضِرَةَ مِنَ النَّاسِ، فَقُلْتُ لِصَاحِبِي: «لَأَمْرٍ مَا أَقْفَرْتُ هَذِهِ الْجَزِيرَةَ، فَلَمْ يَعْمرْهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ؛ فَمَا أَظُنُّنَا أَوْلَ مَنْ حَلَّ بِأَرْضِهَا، وَأَعْجَبَ بِاعْتِدَالِ جَوْهَا وَلَذِيذِ فَاكِهَتِهَا.»

فَقَالَ: «الرَّأْيُ مَا رَأَيْتَ. وَلَوْلَا ذَلِكَ، لَمَا حَلَّتْ مِنْ أَهْلِهَا، وَأَقْفَرَتْ مِنْ سَاكِنِيهَا.» وَكَأَنَّمَا أَجْرَى الْقَدْرُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ عَلَى لِسَانِ صَاحِبِي عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ مِنْهُ بِمَا يُحِبُّهُ لَهُ مِنْ أَحْدَاثٍ. وَقَضَيْنَا نَهَارَنَا وَلَيْلَانَا فِي مَرِحٍ وَابْتِهَاجٍ. وَجَلَسْنَا نَسْمُرُ فِي ضَوْءِ الْبَدْرِ، ثُمَّ نَمْنَا عَلَى الْحَشَائِشِ الْخَضِرِ الْمُحَلَّلَةِ بِالْأَزْهَارِ ذَاتِ الْأَرِيحِ الْفَوَاحِ. وَعَلَيْنِي التَّعَبُ، فَلَمْ أَسْتَيْقِظْ إِلَّا فِي الضُّحَى. وَلَمْ أَجِدْ صَاحِبِي مَعِي، فَنَادَيْتُهُ مَرَّاتٍ، فَلَمْ أَظْفَرْ بِغَيْرِ رَجْعِ

الصَدَى. وَبَحَثْتُ عَنْهُ أُسْبُوعَيْنِ فِي أَنْحَاءِ الْجَزِيرَةِ، فَلَمْ أَعْتُرْ لَهُ عَلَى أَتْرِ، فَأَيَّقَنْتُ أَنْ كَارِثَةً حَلَّتْ بِهِ، وَيَسْتُ مِنْ لِقَائِهِ.

وَكُنْتُ أَتَمَنَّى لَوْ أَسْتَطِيعُ فِدَاءَهُ مِمَّا لَحِقَ بِهِ مِنَ الْمَكَارِهِ، لَوْ كَانَ يُجِدِي الْفِدَاءَ. وَاسْفًا عَلَيْهِ! لَقَدْ فَدَدْتُ فِيهِ صَدِيقًا وَفِيًّا وَأَمِينًا مُخْلِصًا، طَالَمَا شَارَكَنِي هُمُومِي وَأَلَامِي، وَأَعَانَنِي فِي حِلِّي وَتَرْحَالِي، وَحَمَلَ عَنِّي مَا أَنْوَأُ بِهِ مِنْ أَثْقَالِ الْحَيَاةِ، فَأَيُّ كَارِثَةٍ فَرَقَتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، بَعْدَ أَنْ نَجَوْنَا مِنْ كُلِّ مَا تَعَرَّضْنَا لَهُ مِنْ فَوَاحِ الْكَوَارِثِ؟

وَلَا حَتَّ لِعَيْنِي فِي - الْيَوْمِ الْخَامِسِ عَشَرَ - غَابَةَ كَثِيفَةً، فَيَمَمْتُهَا، وَرُحْتُ أَجُوسَ خِلَالَ أَشْجَارِهَا، فَاعْتَرَضَنِي قَصْرٌ لَمْ أَرْ لَهُ شَبِيهًا بَيْنَ قُصُورِ الْمُلُوكِ، تُحِيطُ بِهِ خَنَادِقُ عَمِيقَةٌ وَاسِعَةٌ مَمْلُوءَةٌ مَاءً. وَرَأَيْتُ عَلَى أَحَدِهَا مَعْبَرًا مُتَحَرِّكًا أَسْلَمَنِي إِلَى مِيدَانٍ فَسِيحٍ مُبَلِّطٍ بِالرُّخَامِ الْأَبْيَضِ، يُوَاجُهُ بَابُ الْقَصْرِ. وَفِي وَسَطِهِ فَتَاةٌ بَهِيَّةُ الطَّلَعَةِ نَائِمَةٌ عَلَى سَرِيرٍ فَاحِرٍ، تَرْتَدِي ثَوْبًا حَرِيرِيًّا مُطَّرَّرًا بِنَفِيسِ اللَّالِي، وَعَلَى رَأْسِهَا تَاجٌ مِنَ الذَّهَبِ مُرْصَعٌ بِالْيَاقُوتِ وَالزُّمُرُدِ وَالْمَاسِ، وَفِي رَقَبَتِهَا عَقْدٌ مِنَ الْيَاقُوتِ النَّادِرِ، وَفِي وَسَطِهِ دُرَّةٌ كَبِيرَةٌ لَا تَقُومُ بِمَالٍ. وَلَوْلُوتَانِ يَبِشَعُ مِنْهُمَا نُورٌ بَاهِرٌ.

وَقَدْ حَيَّلْتُ إِلَيْ - حِينَ رَأَيْتُهَا - أَنَّهَا تَتَأَمَّلُنِي وَتُنَعِّمُ نَظَرَهَا فِي. وَلَمْ يَدُرْ بِخَلْدِي أَنَّهَا تَمْنَالُ صَامِتٌ لَا حَرَكَةَ بِهِ، وَلَا حَيَاةَ فِيهِ، كَيْفَ! وَجَمَالُهَا مُشْرِقٌ، وَحُسْنُهَا زَاهِرٌ، وَخَدَاهَا مُورَدَانِ يُؤَكِّدَانِ لِمَنْ يَرَاهُمَا أَنَّ دَمَ الْحَيَاةِ يَجْرِي فِي عُرُوقِ الْفَتَاةِ مُتَدَفِّقًا. وَكَانَ بَرِيقُ عَيْنَيْهَا يُحِيلُ لِمَنْ يَرَاهُ كَأَنَّهَا يُحَرِّكُهُمَا الْهُدْبُ، فَتَرْمَشُ بِهِمَا، فَلَا يَتِمَّاكَ أَنْ يَبْدَأَهَا بِالتَّحِيَّةِ.

يَا لِلْعَجَبِ! أَهَذَا تَمْتَالُ فَاقِدُ الْحَيَاةِ؟ تَرَى أَيُّ مَثَلٍ أَبْدَعَهُ؟ أَمَّا السَّرِيرُ الَّذِي اسْتَقَرَّتْ عَلَيْهِ الْفَتَاةُ فَلَهُ دَرَجٌ، وَعَلَى الدَّرَجِ خَادِمَانِ: أَبْيَضٌ وَأَسْوَدٌ، وَبِيدَ أَحَدِهِمَا رُمْحٌ مِنَ الْفُؤَادِ، وَبِيدَ الْآخَرِ سَيْفٌ مَاضٍ يَكَادُ سَنَاهُ يَخْطَفُ الْأَبْصَارَ، وَبَيْنَ يَدَيْهِمَا لَوْحٌ مُعَلَّقٌ فِيهِ مِفْتَاحٌ ذَهَبِي.

وَدَنَوْتُ مِنَ اللُّوحِ، فَرَأَيْتُ عَلَيْهِ نَقْشًا بَدِيعًا مَكْتُوبًا فِي وَسَطِهِ: «مَنْ قَدِمَ عَلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ، وَيَسَّرَ اللَّهُ لَهُ دُخُولَ هَذِهِ الْغَايَةِ، وَكَتَبَ لَهُ الْوُصُولَ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ، وَارَادَ أَنْ يَطْفَرَ بِالْقَصْرِ السَّعِيدِ، فَلْيَأْخُذْ هَذَا الْمِفْتَاحَ دُونَ أَنْ يَمَسَّنِي أَوْ يَمَسَّ مِنْ حِلْيَتِي وَلَا إِلَيَّ

شَيْئًا، فَإِذَا وَسَّوسَ لَهُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُخَالِفَ هَذَا النُّصْحَ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلتَّهْلُكَةِ، وَخَسِرَ سَعَادَتَهُ وَحَيَاتَهُ جَمِيعًا.»

(٢) قَنَاةُ الْأَمِيرِ

وَكَانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّي أَنِّي تَعَوَّدْتُ — مُنْذُ نَشَأَتِي — الطَّاعَةَ، وَرُضْتُ نَفْسِي عَلَى الْقَنَاةِ، فَاتَّبَعْتُ النُّصْحَ الَّذِي قَرَأْتُهُ، وَصَعِدْتُ الدَّرَجَ، وَأَخَذْتُ مِفْتَاحَ الْقَصْرِ مِنْ عُنُقِ الْفَتَاةِ، دُونَ أَنْ يُسَاوِرَنِي الطَّمَعُ فِي أَخْذِ مَا عَدَاهُ. ثُمَّ تَقَدَّمْتُ إِلَى بَابِ الْقَصْرِ، وَهُوَ مَصْنُوعٌ مِنْ خَشَبِ السَّرْوِ، وَبِهِ نَقْشٌ بَارِزٌ يُمَثِّلُ طَائِفَةً مُخْتَلَفَةً مِنَ الطَّيْرِ، وَعَلَيْهِ قُفْلٌ كَبِيرٌ مِنَ الذَّهَبِ عَلَى هَيْئَةِ أَسَدٍ، فَمَا إِنْ وَضَعْتُ الْمِفْتَاحَ فِي الْقُفْلِ حَتَّى انْفَتَحَ قَبْلَ أَنْ أُدِيرَ فِيهِ الْمِفْتَاحَ، فَتَعَجَّبْتُ مِمَّا رَأَيْتُ. وَلاَحَتْ مِنِّي التِّفَاتَةُ، فَأَبْصَرْتُ سَلْمًا مِنَ الرُّخَامِ الْأَسْوَدِ، فَصَعِدْتُهُ وَدَخَلْتُ بِهِوَ كَبِيرًا مُزِينًا بِالزُّرِّيَّاتِ الْبُلُورِيَّةِ وَالطَّنَافِسِ الْحَرِيرِيَّةِ الْمُذَهَّبَةِ، وَبِهِ أَرَأْتُكَ مِنَ الدِّيْبَاجِ الْمُذَهَّبِ، فَأَسْلَمَنِي إِلَى حُجْرَةٍ أُخْرَى تَمِينَةَ الْأَثَاثِ. وَنَظَرْتُ فَإِذَا سَيِّدَةٌ فِي مُقْتَبِلِ شَبَابِهَا، نَائِمَةٌ عَلَى إِحْدَى الْأَرَائِكِ، مُسْنِدَةٌ رَأْسَهَا إِلَى وَسَادَةٍ حَرِيرِيَّةٍ، وَقَدْ ارْتَدَّتْ أَنْفَسَ الثِّيَابِ، وَإِلَى جَانِبِهَا نَضْدٌ مِنَ الْمَرْمَرِ. وَاقْتَرَبْتُ مِنْهَا، فَرَأَيْتُهَا مُغْمَضَةً الْعَيْنَيْنِ. وَاسْتَمَعْتُ إِلَى أَنْفَاسِهَا الْخَافِتَةِ، فَتَبَيَّنَ لِي أَنَّهَا لَا تَزَالُ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ. وَعَجِبْتُ لِوُجُودِهَا وَحَدَا فِي هَذَا الْقَصْرِ الْمُنْفَرِدِ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ الْمُقْفَرَةِ. وَخَطَرَ لِي أَنْ أَوْقِظَهَا مِنْ نَوْمِهَا، وَلَكِنِّي أَحْجَمْتُ حَتَّى لَا أَنْغَصَ عَلَيْهَا صَفْوًا رَاحَتَهَا، وَأُكَدِّرَ عَلَيْهَا هَنَاءَ رَقْدَتِهَا، فَغَادَرْتُ الْقَصْرَ، مُعْتَرِمًا عَوْدَتِي إِلَيْهِ بَعْدَ سَاعَاتٍ.

(٣) عَجَائِبُ الْجَزِيرَةِ

ثُمَّ اسْتَأْنَفْتُ تَجْوَالِي فِي الْجَزِيرَةِ، فَرَأَيْتُ عَجَائِبَ مِنْ طَيْرِهَا وَحَيَوَانِهَا وَحَشَرَاتِهَا لَمْ أَرْ لَهَا مِثْلًا فِي غَيْرِهَا، فَقَدْ شَهِدْتُ مِنْ غَرَائِبِهَا مَخْلُوقَاتٍ لَا أَدْرِي كَيْفَ أَسْمِيهَا، فَهِيَ تَبْدُو فِي هَيْئَةِ التَّمَلِّ وَحَجْمِ النَّمْرَةِ. وَقَدْ حَسَبْتُهَا — أَوَّلًا مَا رَأَيْتُهَا — مُقْفَرَسَةً، فَتَأَهَّبْتُ لِصِرَاعِهَا. وَلَكِنَّهَا أَسْرَعَتْ بِالْفِرَارِ حِينَ رَأَيْتُنِي. وَلَقِيتُ أَنْوَاعًا أُخْرَى مِنْ مُخْتَلِفِ الْحَيَوَانِ،

تَبَعْتُ هَيْئَتَهَا عَلَى الرَّعْبِ وَالْفَزَعِ. وَلَكِنَّهَا سُرْعَانَ مَا نَفَرْتُ مِنِّي، وَحَادَتْ عَن طَرِيقِي،
دُونَ أَنْ تَمَسَّنِي بِأَدَى. وَعُدْتُ إِلَى الْقَصْرِ بَعْدَ سَاعَةٍ، فَرَأَيْتُ الْفَتَاةَ لَا تَزَالُ غَارِقَةً فِي
نَوْمِهَا.

(٤) انْتِبَاهُ الْأَمِيرَةِ

وَأَشْتَدَّتْ رَغْبَتِي فِي مُحَادَثَتِهَا، لِأَتَعَرَّفَ طَرَفًا مِنْ قِصَّتِهَا؛ فَأَثَرْتُ شَيْئًا مِنَ الضَّحِيحِ،
وَسَعَلْتُ مَرَّاتٍ، فَلَمْ تَسْتَيْقِظْ، فَدَنَوْتُ مِنْهَا وَحَرَكْتُهَا بِيَدِي، فَلَمْ تَشْعُرْ وَلَمْ تَتَحَرَّكْ،
فَأَشْتَدَّ عَجْبِي وَسَاوَرَنِي الشُّكُّ فِي أَمْرِهَا، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي: «لَعَلَّهَا مَسْحُورَةٌ، فَكَيْفَ
السَّبِيلُ إِلَى إِيقَازِهَا مِنْ سُبَاتِهَا؟»

وَأَنْتَابَنِي الْيَأْسُ مِنْ تَحْقِيقِ هَذِهِ الْغَايَةِ، فَهَمَمْتُ بِالْعَوْدَةِ. وَحَانَتْ مِنِّي التَّفَاتَةُ
فَرَأَيْتُ — عَلَى الْمَائِدَةِ الْمُرْمِيَّةِ — الْكَلِمَاتِ التَّالِيَةَ:

مَرْحَبًا بِكَ أَيُّهَا الْأَمِينُ. لَقَدْ بَرَّكَ اللهُ مِنْ الطَّمَعِ، فَظَفِرْتَ بِالْقَصْرِ السَّعِيدِ
فَاهِمَسَ فِي أَدْنِ الْفَتَاةِ بِاسْمِكَ وَاسْمِ أَبِيكَ وَجَدَّكَ، تَسْتَيْقِظُ عَلَى الْفُورِ مِنْ
نَوْمِهَا الْعَمِيقِ.

فَأَذَعَنْتُ لِمَا أُمِرْتُ. وَمَا إِنْ نَطَقْتُ بِاسْمِي وَاسْمِي أَبِي وَجَدِّي حَتَّى تَنْفَسَتْ الْفَتَاةُ
الصُّعْدَاءَ، ثُمَّ فَتَحَتْ عَيْنَيْهَا وَانْتَبَهَتْ. وَلَمْ تَكُنْ دَهَشَتْهَا لِرُؤْيِي بِأَقْلٍ مِنْ دَهَشَتِي
لِرُؤْيَيْتِهَا، فَابْتَدَرْتَنِي قَائِلَةً: «يَا لَكَ مِنْ مَقْدَامِ شُجَاعِ الْقَلْبِ، كَرِيمِ النَّفْسِ. وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا
تَخَطَّيْتَ الْعَوَاتِقَ وَالْمُغْرِيَاتِ الَّتِي أَهْلَكَتْ غَيْرَكَ مِمَّنْ حَاوَلُوا دُخُولَ الْقَصْرِ. وَهِيَ — بِلَا
رَيْبٍ — فَوْقَ مَقْدُورِ الْإِنْسَانِي! تَرَى مَنْ تَكُونُ؟ أَجِنِّي أَنْتَ أَمْ مَلِكٌ؟»

فَقُلْتُ لَهَا: «كَلَّا يَا سَيِّدَتِي، مَا أَنَا بِجِنِّي وَلَا مَلِكٌ، بَلْ أَنَا إِنْسَانٌ عَادِي، قَدِمَ
عَلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ مُصَادَفَةً، وَسَاقَتُهُ قَدَمَاهُ — عَن غَيْرِ قَصْدٍ — إِلَى هَذَا الْقَصْرِ الَّذِي
تَسْكُنِينَ، وَأَظْفَرَهُ الْحِظُّ السَّعِيدُ بِمِفْتَاحِهِ فِي غَيْرِ مَشَقَّةٍ وَلَا عَنَاءٍ.»

فَقَالَتِ الْفَتَاةُ: «لَنْ يَتِمَّ هَذَا إِلَّا لِأَمِيرٍ فَاضِلٍ كَرِيمٍ لَا يُخَامِرُ نَفْسَهُ الطَّمَعِ، وَلَا تَفْتِنُهُ
الْمُغْرِيَاتُ، فَمَنْ تَكُونُ؟»

فَرَوَيْتُ لَهَا مَا لَقَيْتُ فِي رِحْلَتِي مِنْ غَرَائِبِ الْأَحْدَاثِ، وَكَاشَفْتُهَا بِمَا شَعَرْتُ بِهِ مِنْ حُزْنٍ عَمِيقٍ لِفَقْدَانِ صَدِيقِي «كَاشِفٍ» بَعْدَ أَنْ نَجَا كِلَانَا مِمَّا تَعَرَّضَ لَهُ مِنْ مُهْلِكَاتٍ.

(5) حَدِيثُ الْبَبْغَاءِ

وَهُنَا سَمِعْتُ صَوْتًا يَهْتَفُ قَائِلًا: «لَا تَأْسَفْ عَلَى صَاحِبِكَ وَلَا تَحْزَنْ، فَقَدْ أَهْلَكَهُ الطَّمَعُ. وَلَوْ خَلَصْتَ نَفْسَهُ مِنَ الْجَشَعِ، كَمَا خَلَصْتَ مِنَ الْخَوْفِ؛ لَكَانَ جَدِيرًا مِثْلَكَ بِدُخُولِ هَذَا الْقَصْرِ السَّعِيدِ.»

وَنَظَرْتُ فَرَأَيْتُ بَبْغَاءَ فَصِيحَةَ اللِّسَانِ تَنْطِقُ بِهَذَا الْكَلَامِ، فَسَأَلْتُهَا مُتَعَجِّبًا: «خَبِّرِينِي — يَا اللَّهِ — كَيْفَ أَهْلَكَ الطَّمَعُ صَدِيقِي «كَاشِفًا»؟»

فَقَالَتِ الْبَبْغَاءُ: «كُنْ عَلَى ثِقَةٍ أَنَّ الطَّمَعَ وَمُخَالَفَةَ النُّصْحِ هُمَا اللَّذَانِ أَنْتَهَيَا بِصَاحِبِكَ إِلَى الْهَلَاكِ؛ فَقَدْ رَأَى تِمْتَالِ الْفَتَاةِ كَمَا رَأَيْتَهُ، وَأَعْرَاهُ الطَّمَعُ بِانْتِزَاعِ الْعِقْدِ اللُّؤْلُئِيِّ مِنْ جِيدِ الْفَتَاةِ، وَمَا كَادَ يَلْمَسُهُ حَتَّى ضَرَبَهُ أَحَدُ الْحَارِسِينَ بِسَيْفِهِ، وَطَعَنَهُ الْأَخْرُ بِرُمْحِهِ، فَقَتِلَ مِنْ فَوْرِهِ، ثُمَّ جَاءَتْ حَشَرَاتُ الْجَزِيرَةِ وَحَيَوَانُهَا فَأَكَلَتْهُ، وَلَمْ تَبْقِ مِنْهُ شَيْئًا، كَمَا أَكَلَتْ غَيْرَهُ مِنْ رُودٍ مِنْ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ الطَّامِعِينَ. وَلَوْ طَمَعْتَ مِثْلَهُ وَفَعَلْتَ فِعْلَهُ لَلَقَيْتَ مِثْلَ مَصْرَعِهِ، فَقَدْ عُنِيَ مُبْدِعُ هَذَا التَّمْتَالِ بِاخْتِبَارِ مَنْ يَفِدُ عَلَى هَذَا الْقَصْرِ، فَانْتَزَعَ اللَّكْلَأِيَّ وَالْأَحْجَارَ الْكَرِيمَةَ حَوْلَ التَّمْتَالِ لِيَتَعَرَّفَ الطُّبَاعُ، بَعْدَ أَنْ نَقَشَ عَلَى اللُّوحِ الَّذِي رَأَيْتَهُ إِلَى جَانِبِ التَّمْتَالِ تَحْذِيرَهُ لِلطَّامِعِينَ وَإِنْدَارَهُ لِلْمُغَامِرِينَ، فَإِذَا شَعَلَتِ النَّفَائِسُ أَحَدَ الرُّودِ عَنْ مِفْتَاحِ الْقَصْرِ كَانَ غَيْرَ جَدِيرٍ بِالسَّعَادَةِ، فَاحْمَدِ اللَّهَ عَلَى خُلُوصِ نَفْسِكَ مِنَ الطَّمَعِ فِيمَا لَيْسَ لَكَ، وَصَفَاءِ قَلْبِكَ مِمَّا تَعَرَّضَ لَهُ صَاحِبُكَ مِنَ الْهَلَاكِ، فَقَدْ وَسَّوَسَ لَهُ الشَّيْطَانُ، فَاسْتَجَابَ لَهُ، وَقَالَ فِي نَفْسِهِ: «أَمِنْ أَجْلِ هَذَا التَّحْذِيرِ السَّخِيفِ أَتْرُكُ هَذِهِ النَّفَائِسَ؟ وَلِمَنْ أَتْرُكُهَا؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْرِمَنِي إِيَّاهَا؟ وَهَلْ يَقْدِرُ تِمْتَالُ عَاجِزٌ عَنِ الْحَرَكَةِ أَنْ يُعَاقِبَ أَحَدًا؟»

(٦) في أجواز الفضاءِ

فَلَمَّا انْتَهتِ الْبِغَاءُ مِنْ كَلَامِهَا تَمَلَّكَنِي الْعَجَبُ مِمَّا سَمِعْتُ، وَاشْتَدَّ بِي الْأَسْفُ لِمَصْرَعِ صَاحِبِي «كَاشِفِ» الَّذِي أَوْزَدَهُ الْحِرْصُ مَوْرِدَ الْهَلَاكِ.
وَسَأَلْتُ الْفَتَاةَ أَنْ تُحَدِّثَنِي بِقِصَّتِهَا، وَكَيْفَ حَلَّتْ بِهَذَا الْقَصْرِ، فَقَالَتِ الْفَتَاةُ: «لِذَلِكَ قِصَّةٌ عَجِيبَةٌ، إِنَّهَا مُفَاجَأَةٌ لَمْ تَكُنْ لِي فِي الْحُسْبَانِ وَلَمْ تَخْطُرْ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِي عَلَى بَالٍ، فَقَدْ....»

وَهُنَا شَعَرْتُ أَنَّ يَدًا رَفِيقَةً تَرْفَعُنِي إِلَى السَّمَاءِ، وَتَحْمِلُنِي مُحَلَّقَةً بِي فِي أَجْوَازِ الْفَضَاءِ. وَسُرْعَانَ مَا اسْتَخْفَى الْقَصْرُ وَالْفَتَاةَ عَنِّي نَاطِرِي، وَلَمْ أَلْبَثْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى رَأَيْتُنِي هَابِطًا إِلَى الْأَرْضِ أَمَامَ بَابِ الْمَدِينَةِ، دُونَ أَنْ يَتَبَيَّنَ لِي: أَيُّ قُوَّةٍ خَفِيَّةٍ نَقَلْتَنِي مِنَ الْقَصْرِ السَّعِيدِ إِلَى أَرْضِ الْوَطَنِ فِي مِثْلِ لَمَحِ الْبَصْرِ؟
وَرَأَيْتُ جَيْشَ ضَيْفِنَا الْعَرِيزِ مُرَابِطًا حَوْلَ الْمَدِينَةِ، فَسَأَلْتُهُمْ عَمَّا جَاءَ بِهِمْ، فَلَمْ يُخْفُوا عَنِّي شَيْئًا.

(٧) مفاجأةٌ جديدةٌ

وَأَرَادَ الْأَمِيرُ أَنْ يُوَاصِلَ حَدِيثَهُ، لَوْلَا أَنَّ مُفَاجَأَةً جَدِيدَةً عَقَدَتْ لِسَانَهُ عَنِ الْكَلَامِ.
يَا لِلْعَجَبِ! هَا هِيَ ذِي فَتَاةِ الْقَصْرِ السَّعِيدِ تَبْدُو مَائِلَةً أَمَامَهُ! فَمَا إِنْ يَرَاهَا الْأَمِيرُ «إِقْبَالَ» حَتَّى يَخْفَ إِلَى لِقَائِهَا فِي لَهْفَةٍ وَشَوْقٍ، وَلَا يَتِمَّاكَ أَنْ تَنْدَّ مِنْهُ صَرْخَةٌ مُنْحَرِيَةٌ:
«رَبَّاهُ! مَرْحَبًا بِكَ يَا «وَادِعَةَ» وَفَرَحَتَاهُ! مِنْ أَيْنَ قَدِمْتَ يَا أَخْتَاهُ؟ وَكَيْفَ كُنْتِ لَكَ النَّجَاةُ؟»

فَقَالَ الْأَمِيرُ «فَاضِلٌ»: «مَا أَعْجَبَ مَا أَرَى وَأَسْمَعُ! أَلَا مَا أَسْعَدَنِي بِلِقَاءِ الْأَخَوَيْنِ وَاجْتِمَاعِ الشَّيْتَيْنِ.»

وَأَسْرَعَتْ «رَائِعَةُ» إِلَى ضَيْفِنَا «وَادِعَةَ» تُعَانِقُهَا، وَتُرَحِّبُ بِهَا، وَتُهَنِّئُهَا بِسَلَامَتِهَا وَاجْتِمَاعِ شَمْلِهَا بِأَخِيهَا.

(٨) قِصَّةُ الْأَمِيرَةِ

وَأَشْتَدَّ الشَّوْقُ إِلَى تَعْرِفِ قِصَّتِهَا، فَأَبْتَدَرَهَا أَحْوَهَا قَائِلًا: «لَقَدْ انْقَطَعَتْ أَخْبَارُكَ يَا «وَادِعَةَ» حَتَّى كَادَ يَدُبُّ الْيَأْسُ إِلَيْنَا مِنْ عَوْدَتِكَ بَعْدَ أَنْ أَعْيَانَا الْبَحْثَ عَنكَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَلَا تَسْأَلِي عَمَّا انْتَابَ أَبَاكَ الْمَلِكُ «عَاصِمًا» مِنَ الْأَلَمِ، فَقَدْ بَرَحَ بِهِ الْحُزْنُ، وَالْحَجَّ عَلَيْهِ الْأَسَى؛ فَاسْلَمَاهُ إِلَى الْمَرِيضِ.

ثُمَّ زَارَنِي فِي نَوْمِي شَيْخٌ مَهِيْبُ الطَّلَعَةِ، رَائِعُ السَّمْتِ، فَأَبْتَدَرَنِي بِالتَّحِيَّةِ، ثُمَّ أَمَرَنِي أَنْ أُسْرِعَ بِالرَّحِيلِ مَعَ نُخْبَةٍ مِنْ جَيْشِي، لِأَنَّ مُفَاجَأَةً سَعِيدَةً تَنْتَظِرُنِي بَعْدَ أَيَّامٍ، فَلَمَّا قُمْتُ مِنْ نَوْمِي حَسِبْتُ مَا رَأَيْتُهُ فِي الْمَنَامِ أَضْعَافَ أَحْلَامٍ، ثُمَّ تَكَرَّرَتِ الرُّؤْيَا فِي الْيَوْمَيْنِ التَّالِيَيْنِ، فَلَمَّا قَصَصْتُهَا عَلَى أَبِي أَخْبَرَنِي أَنَّهُ رَأَى مِثْلَ هَذِهِ الرُّؤْيَا فِي ثَلَاثِ اللَّيَالِي الْمَاضِيَةِ: أُمْسٍ وَأَوَّلَ أُمْسٍ وَأَوَّلَ مِنْ أُمْسٍ، وَسَمِعَ الشَّيْخُ يَأْمُرُهُ أَنْ يُعِدَّ السَّفَائِنَ لِتَرْجِيلِ وَلَدِهِ، فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ مُسْتَطَاعٍ، وَيُبَشِّرُهُ بِمُفَاجَأَةٍ سَعِيدَةٍ تَنْتَظِرُهُمَا فِي نَهَايَةِ هَذِهِ الرَّحْلَةِ. فَاطْمَأَنَّتْ نَفْسِي، وَارْتَاحَ بَالِي لِمَا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي، وَأَبْحَرْتُ فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِيِ مَعَ نُخْبَةٍ مِنْ أَصْفِيَائِي، وَانْتَهَتِ الرَّحْلَةُ الْعَاصِفَةُ بِهِذِهِ الْحَاتِمَةِ السَّعِيدَةِ، فَخَرَّيْنِي يَا أَحْتَاهُ، مَاذَا حَجَبَكَ عَنَّا طَوْلَ هَذَا الْوَقْتِ؟»

فَقَالَتْ: «كُنْتُ نَائِمَةً فِي مَخْدَعِي بِحَدِيقَةِ قَصْرِ الرَّبِيعِ الْمُطَلَّةِ عَلَى الْبَحْرِ، وَكَانَتِ اللَّيْلَةُ قَمْرَاءَ، فَلَمْ أَسْتَيْقِظْ مِنْ نَوْمِي إِلَّا فِي أَصِيلِ الْيَوْمِ التَّالِيِ. وَلَا تَسَلْ عَن دَهْشَتِي حِينَ رَأَيْتُ جَمَاعَةً مِنَ الْعُرَبَاءِ يُحِيطُونَ بِي، وَيَتَلَطَّفُونَ فِي تَسْكِينِ ثَائِرَتِي، وَلَا يَأْلُونَ جُهْدًا فِي جَلْبِ الطَّمَانِينَةِ إِلَى نَفْسِي. ثُمَّ يَقُولُ لِي كِبِيرُهُمْ مُتَوَدِّدًا: «لَا تَخَشِي أَيَّتُهَا الْأَمِيرَةُ، وَلَا تَيَاسِي، فَلَنْ يَنَالِكَ أَدَى وَلَا سُوءٌ. إِنَّ السَّعَادَةَ لَتَنْتَظِرُكَ، فَقَدْ اخْتَارَكَ مَوْلَانَا «مَرْمُوشٌ» مَلِكُ الْهِنْدِ الْأَعْظَمِ، لِتَكُونِي عَرُوسَهُ، فَلَمَّا ضَنَّ عَلَيْهِ أَبُوكَ بِتَحْقِيقِ أُمْنِيَّتِهِ عَرَضَ الْأَمْرَ عَلَى وَزِيرِهِ «أَنْبُوشٍ» فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِاخْتِطَافِكَ. وَلَنْ تَلْقَى عِنْدَ مَلِكِنَا غَيْرَ السَّعَادَةِ وَالْهَنَاءِ.»

فَتَوَسَّلْتُ إِلَيْهِمْ أَنْ يُعِيدُونِي إِلَى أَبِي، فَلَمْ يُصْغِ إِلَى رَجَائِي أَحَدٌ، فَأَعْمَلْتُ الْحِيلَةَ لِلتَّخْلِصِ مِنْهُمْ، وَسَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يُلْهِمَنِي وَجَهَ الصَّوَابِ، وَيُنَجِّبَنِي مِنْ أَسْرِ هَوْلَاءِ الْغَاصِبِينَ.

وسارت بنا السفينة في البحر يومين، ثم حلت في صباح اليوم التالي بشاطئ جزيرة نائية، فافترح أحدهم أن نستريح فيها قليلاً، ثم نستأنف سيرنا في صباح اليوم التالي. وقضينا ساعة من النهار تفرق فيها أولئك الرجال يجوبون أنحاء الجزيرة، وبقيت منفردة إلى المساء دون أن يعود منهم أحد، فصعدت إلى شجرة قريبة، ونمت بين أغصانها إلى الصباح وأنا أفكر في وسيلة للهرب منها. ولبتت في الجزيرة أيّاماً أكل من ثمارها، وأشرب من مائها، وأنا م فوق أشجارها، وأجوس في أنحائها، حتى سافنتي قدماي - ذات يوم - إلى غابة كبيرة انتهى بي السير فيها إلى القصر السعيد.

(٩) ترحيب البغاء

وهنا حدثتهم الأميرة عن تمثال الفتاة حديثاً يكاد لا يختلف عما حدثهم به الأمير «فاضل»، وقصت عليهم كيف أخذت مفتاح القصر السعيد، دون أن يعريها الطمع باغتصاب حليها وانتهاب لآلتها، وكيف فنج لها باب القصر السعيد على مصراعيه، وكيف استقبلتها البغاء «صبيحة» حارسه القصر، فرحانه بمقدمها، وكيف أفضت إليها بما لقيه خاطفوها من جزاء عادل.

قالت البغاء: «كان من حسن حظك أن يعرج أعوان «مرموش» على هذه الجزيرة، بعد أن نزلوا في حجرة نومك عطراً مرقدًا (منومًا) ثم خطفوك من قصر الربيع، دون أن يفتنوا إلى خديعتهم أحد، ليفدّموك هدية للملك «مرموش» فسألت البغاء: «وماذا كان مصير الخاطفين؟»

فقالت «صبيحة»: «تفرقوا يتنزهون في أرجاء الجزيرة، وشغلهم طيب جوها، وجمال هوائها، ولذيد ثمارها، عن العودة إلى بلادهم. وساقهم سوء حظهم - واحداً بعد الآخر - إلى تمثال الفتاة، فشغلتهم حليها ونفائسها عن مفتاح القصر، وأنستهم ما قرءوا من نذير وتحذير، فقتلهم الحارسان، وأسرعن إليهم الضواري (الوحوش المفترسة) والحشرات، فالتهمتهم في لحظات. وهكذا هلكوا متفرقين، دون أن يفتنوا أحدهم لمصرع من سبقه من الطامعين.»

وسألت البغاء: «كيف يتاح لي الخروج من هذه الجزيرة؟» فقالت: «لكل شيء أو، ولكل زرع إبان (وقت). وسيتّم خلاصك من كربتك، وإيقاظك من نومك، على

يَدِ أَمِيرِ فَاضِلِّ شُجَاعٍ، سَيِّدِ مُطَاعٍ، كَرِيمِ الْأَصْلِ، رَاجِحِ الْعَقْلِ، فَاصْبِرِي يَا فِتْنَاءُ، وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ.»

(١٠) نَوْمٌ وَيَقْظَةٌ

وَهُنَا شَعَرْتُ بِحَاجَةِ إِلَى النَّوْمِ، فَالْقَيْتُ بِجِسْمِي الْمَجْهُودِ عَلَى سَرِيرٍ قَرِيبٍ. وَأَسْلَمْتُ جَفْنِي لِلرُّقَادِ، وَمَا زِلْتُ نَائِمَةً حَتَّى أَيَقْظِنِي هَذَا الْأَمِيرُ الْفَاضِلُّ مِنْ سُبَاتِي الْعَمِيقِ.»
 ثُمَّ قَصَّتِ الْفِتْنَاءُ مَا دَارَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْأَمِيرِ «فَاضِلِّ» مِنْ حِوَارٍ، وَكَيْفَ اسْتَخْفَى عَنْ عَيْنَيْهَا، وَغَابَ عَنْ نَاطِرِيهَا، ثُمَّ اسْتَوَلَى عَلَيْهَا النَّوْمُ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا انْتَبَهَتْ مِنْ رُقَادِهَا، رَأَتْ الْقَصْرَ السَّعِيدَ قَدْ انْتَقَلَ إِلَى هَذِهِ الْمَدِينَةِ بِجِوَارِ الْقَصْرِ الْمَلَكِيِّ، وَسَمِعَتْ الْبَبْغَاءَ «صَبِيحَةَ» تُنَادِيهَا، وَتَرْجُوهَا أَنْ تُسْرِعَ إِلَى لِقَاءِ أَخِيهَا وَتَدْعُوهُ — مَعَ جُنْدِهِ وَأَصْحَابِهِ — لِمَزَارَةِ الْقَصْرِ السَّعِيدِ، لِيَتِمَّ عَلَى أَيْدِيهِمْ مَا بَدَعُوهُ مِنْ صَنِيعٍ مَجِيدٍ.

الفصل السابع

(١) أسماء الأُمراء

كَانَ الْقَصْرُ السَّعِيدُ — كَمَا رَأَهُ زَائِرُوهُ — آيَةً مِنْ آيَاتِ الْفَنِّ الْعَالِيِ وَالذُّوقِ السَّلِيمِ، فَلَا عَجَبَ إِذَا نَهَشَ الْأُمْرَاءُ وَالْجُنْدُ حِينَ ارْتَادُوا حَدَائِقَهُ وَأَبْهَاءَهُ، وَشَهِدُوا أَضْوَاءَهُ وَلَأَلَّتْهُ. وَلَا تَسَلْ عَنِ ابْتِهَاجِهِمْ بِمَا شَهِدُوهُ مِنْ جَمَالِ تَصَاوِيرِهِ، وَبِرَاعَةِ هُنْدَسَتِهِ. وَقَدْ قَضَى الْأُمْرَاءُ أُمْسِيَّةً حَافِلَةً بِجَالِبَاتِ الْبَهْجَةِ، وَبَاعِثَاتِ السُّرُورِ، وَقَدْ حَفَلَتْ مَوَائِدُهُمْ بِمَا لَذُّ وَطَابَ، مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ، فَظَلَّ الْأُمْرَاءُ يَسْمُرُونَ جَانِبًا مِنَ اللَّيْلِ.

تَسَأَلْنِي: أَيُّ حَدِيثٍ كَانَ مَوْضُوعَ جَوَارِهِمْ، وَمَدَارَ سَمَرِهِمْ؟ وَمَا أَحْسَبُكَ إِلَّا عَارِفًا بِجَوَابِ سُؤْلِكَ، فَلَنْ يَغِيبَ عَنِّي فِطْنَتُكَ أَنَّ جَوَارَهُمْ لَمْ يَعُدَّ الْحَدِيثَ عَمَّا لَاقَوْهُ فِي سَفَرِهِمْ مِنْ مُدْهِشَاتٍ وَغَرَائِبَ، وَمَا تَعَرَّضُوا لَهُ فِي رِحْلَتِهِمْ مِنْ كَوَارِثٍ وَمَصَائِبَ، وَكَيْفَ اجْتَمَعَ الشَّمْلُ الشَّتِيْتُ، بَعْدَ أَنْ طَوَّحَتْ بِهِمُ الْأَقْدَارُ فِي مَطَارِحِ الْأَرْضِ؛ فَنَسُوا بِذَلِكَ كُلَّ مَا اعْتَرَضَهُمْ مِنْ مَصَائِبَ وَمَحَنٍ. ثُمَّ عَرَّجُوا عَلَى مَا أَصَابَ مَدِينَةَ النَّحَاسِ، وَمَا لَحِقَ بِسَاكِنِيهَا مِنْ طَيْرٍ وَحَيَوَانٍ وَنَاسٍ. وَرَاحُوا يُقَلِّبُونَ الْأَمْرَ عَلَى كُلِّ وَجْهِ، فَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَى سَبَبٍ يُعْوَلُونَ عَلَيْهِ، أَوْ تَعْلِيلٍ تَرْتَاحُ عُقُولُهُمْ إِلَيْهِ.

(٢) كَشْفُ السُّتَارِ

وَهُنَا قَالَتِ الْبَيْغَاءُ «صَبِيحَةَ»: «عِنْدِي جَوَابٌ مَا تَسْأَلُونَ، فَهَلْ أَنْتُمْ لِمَا أَقُولُ سَامِعُونَ؟» فَقَالُوا لَهَا فِي شَوْقٍ وَلَهْفَةٍ: «أَدَانَا لِحَدِيثِكَ سَامِعَةٌ، وَقُلُوبُنَا لِمَا تَقُولِينَ وَإِعِيَّةَ.»

فَقَالَتِ الْبَيْغَاءُ: «لَعَلَّ الْأَمِيرَيْنِ «فَاضِلًا» وَأُخْتَهُ «رَائِعَةً» لَا يَعْرِفَانِ الْكَثِيرَ عَنِ الْمَلِكِ «فُرْهُودٍ» جَدَّهُمَا لِأَبِيهِمَا، وَلَا عَنِ ابْنِ عَمِّهِ الْأَمِيرِ «سَوْدَلٍ» جَدَّهُمَا لِأُمِّهِمَا. وَقَدْ أَنْ لُهُمَا أَنْ يَعْرِفَا مَا كَانَ لِجَدَّهُمَا «فُرْهُودٍ» مِنْ شَأْنِ عَظِيمٍ، وَفَضْلِ عَمِيمٍ، فَقَدْ ذَاعَ صَيْتُهُ فِي الْبِلَادِ، بِمَا عُرِفَ عَنْهُ مِنْ عَدْلِ وَحَزْمٍ وَرَشَادٍ. وَكَانَ مَوْضِعَ إِجْلَالٍ مُلُوكِ عَصْرِهِ قَاطِبَةً، وَكَانَ مِنَ الْمُعَمَّرِينَ.

(٣) رُؤْيَا «فُرْهُودٍ»

وَقَدْ رَأَى فِي نَوْمِهِ قُبَيْلَ وَفَاتِهِ دَابَّةً غَرِيبَةً الشَّكْلِ، لَهَا ذَيْلٌ نُعْبَانٍ وَجِسْمٌ سَمَكَةٍ، وَجَنَاحَا نَسْرٍ، وَوَجْهُ بُومَةٍ. وَشَهِدَهَا تَطِيرُ فِي الْفَضَاءِ حَتَّى تَبْلُغَ ذِرْوَةَ الْجَبَلِ، ثُمَّ تَعُودُ مُنْدَفِعَةً إِلَى الْمَدِينَةِ، وَتَحُلُّ فِي حَدِيقَةِ قَصْرِهِ، فَتَنْعَبُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. وَسَمِعَ لِتَنْعَابِهَا الْكَرِيهِ صَوْتًا يُصِمُّ الْأَذَانَ. وَرَأَى الْحَدِيقَةَ قَدْ ذَوَتْ أَزْهَارُهَا، وَصَوَّحَ نَبْتُهَا، وَتَهَاوَى طَيْرُهَا، وَدَبَّ الْمَوْتُ فِي أَرْجَائِهَا.

فَانْتَبَهَ الْمَلِكُ «فُرْهُودٌ» مِنْ نَوْمِهِ مَذْعُورًا، وَدَعَا ابْنَ عَمِّهِ الْأَمِيرَ «سَوْدَلًا»، وَقَصَّ عَلَيْهِ رُؤْيَاهُ فَقَالَ لَهُ «سَوْدَلٌ»: «لَا مَعْدَى لَنَا عَنِ اسْتِشَارَةِ «صَفْصَافَةَ» الْحَكِيمِ، فَعِنْدَهُ تَأْوِيلُ هَذِهِ الرُّؤْيَا، وَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يُشِيرَ عَلَيْنَا بِالرَّأْيِ الرَّاجِحِ.»

وَكَانَ «صَفْصَافَةَ» سَاحِرَ عَصْرِهِ. وَكَانَ الْمَلِكُ «فُرْهُودٌ» يُصْفِيهِ الْوَدَّ مِنْذُ طُفُولَتِهِمَا إِلَى أَنْ بَلَغَا سِنَّ الشَّيْخُوخَةِ، فَلَمَّا قَصَّ رُؤْيَاهُ عَلَيْهِ أَطْرَقَ «صَفْصَافَةَ» مُنْجَهَمًا، وَقَالَ لِمَلِيكِهِ: «يَا لَهُ مِنْ حُلْمٍ خَطِيرٍ، يَحْمِلُ فِي تَنَائِيهِ أَفْذَحَ النَّكْبَاتِ. وَلَا مَعْدَى لَنَا عَنِ التَّجْمُلِ وَالصَّبْرِ، حَتَّى يَنْفَذَ قَضَاءَ اللَّهِ فِينَا، وَتَجْرِي أَحْكَامُهُ عَلَى ذَوِينَا. وَلَنْ يُثْنِيَنِي عَائِقُ عَنِ السَّعْيِ فِي تَهْوِينِ وَقَعِهِ الْأَلِيمِ، وَتَخْفِيفِ ضَرَرِهِ الْجَسِيمِ، مَا وَسَعَنِي الْجُهْدُ وَسَاعَفَنِي الْعِلْمُ، فَأَمْهَلْنِي شَهْرَيْنِ، لَعَلِّي أَوْفَّقُ فِي مَسْعَايَ.»

وَغَابَ «صَفْصَافَةَ» عَنْ مَلِيكِهِ شَهْرَيْنِ، ثُمَّ عَادَ إِلَيْهِ، وَقَالَ لَهُ فِي لَهْجَةِ الْمُطْمَئِنِّ الْوَاتِقِ: «كُلُّ شَيْءٍ حَسَنٌ إِذَا حَسُنَتْ نَهَائِتُهُ، وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ الْكَارِثَةَ الَّتِي تَحُلُّ بِهِذِهِ الْمَدِينَةَ لَنْ يَزِيدَ عُمْرُهَا عَنْ عَامٍ وَنِصْفِ عَامٍ، ثُمَّ يَعُودَ إِلَى أَهْلِهَا الْأَمْنِ وَالسَّلَامِ، بَعْدَ أَنْ يَتَعَرَّضَ

ثَلَاثَةَ مِنْ كِرَامِ الْأُمَرَاءِ لِلْحِمَامِ (لِلْمَوْتِ). وَقَدْ بَدَلْتُ مَا فِي وَسْعِي لِتَأْمِينِ الْمَدِينَةِ فِي خِلَالِ هَذِهِ الْمِحْنَةِ مِنْ كُلِّ طَامِعٍ فِي غَزْوِهَا، أَوْ مُتَطَلِّعٍ لِنَهْبِهَا وَسَلْبِهَا، فَلَا يُسَاوِزُكَ الْهَمُّ، وَلَا يُبْرِحُ بِكَ الْغَمُّ وَفَوَّضَ أَمْرَكَ لِخَالِقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَرَازِقِ الطَّيْرِ فِي الْهَوَاءِ؛ فَهُوَ أَكْبَرُ بِنَا وَأَرْحَمُ، وَأَرْفَقُ عَلَيْنَا وَأَكْرَمُ.»

فَسَأَلَهُ «فَرُهُودٌ»: «أَقْرَبِيَّةُ هَذِهِ الْمِحْنَةُ أَمْ بَعِيدَةٌ؟»

فَأَجَابَهُ «صَفْصَافَةٌ»: «لَنْ تَقَعَ هَذِهِ الْمِحْنَةُ فِي عَهْدِكَ، بَلْ فِي عَهْدِ «أَسَامَةَ» وَوَلَدِكَ.»

(٤) فَضْلُ «صَفْصَافَةَ»

وَقَدْ صَدَقَ «صَفْصَافَةُ» فِيمَا قَالَ، وَبَرَّ بِمَا وَعَدَ، وَكَانَ لِبِرَاعَتِهِ أَحْمَدُ الْأَثَرِ فِي تَأْمِينِ الطَّرِيقِ، وَأَكْبَرُ الْجُهْدِ فِي تَهْيِئَةِ الْوَسَائِلِ لِاجْتِمَاعِ الشَّمْلِ، فَقَدْ كَانَ لَهُ الْفَضْلُ فِي إِقَامَةِ سُورِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْعَالِي، وَتَرْوِيدِهِ بِمَا نَقَشَهُ مِنْ طَلَّاسِمٍ وَأَرْصَادٍ، لِمَصْدِّ الْغَزَاةِ وَالرُّوَادِ، وَمَا أَعَدَّهُ مِنْ فَاتِنَاتِ الْجَوَارِي الَّتِي تَلُوحُ لِكُلِّ مَنْ تَحَدَّثَهُ نَفْسُهُ بِاقْتِحَامِ السُّورِ، فَيَنْدَفِعُ نَحْوَهُنَّ، وَنَدُوقُ عُنُقِهِ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِنَّ. وَبِهَذَا ضَمِنَ أَلَّا يَفْتَحَ الْمَدِينَةَ إِلَّا مَا جِدَّ كَرِيمٌ، جَدِيرٌ بِتَفْرِيجِ كُرْبَتِهَا، وَتَخْلِيصِهَا مِنْ مِحْنَتِهَا.

وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى هَذَا الصَّنْعِ الْمَجِيدِ؛ فَأَنْشَأَ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ النَّائِيَةِ هَذَا الْقَصْرِ السَّعِيدِ، وَأَقَامَنِي وَإِخْوَتِي مِنَ الْجَنِّ فِيهِ، لِنَتَوَلَّى جِرَاسَتَهُ، فَكَانَ مَوْئِلًا لِلْأَمِيرَيْنِ مَكِينًا، وَحِصْنًا حَصِينًا. وَقَدْ وَضَعَ فِيهِ تَمَثَالَ الْفَتَاةِ الْحَسَنَاءِ الَّتِي رَأَاهَا الْأَمِيرَانِ، وَنَثَرَ حَوْلَهَا نَفِيسَ اللُّوْلُوِّ وَالْمَرْجَانِ، لِتُعْرِي الطَّامِعِينَ، حَتَّى لَا يَدْخُلَ الْقَصْرَ إِلَّا مُخْلِصٌ أَمِينٌ.»

وَلَمَّا انْتَهَتْ «صَبِيحَةُ» مِنْ حَدِيثِهَا سَأَلَهَا الْأُمَرَاءُ الْأَرْبَعَةَ مُتَلَهِّفِينَ: «وَكَيْفَ وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ؟ وَأَيُّ سَاحِرٍ دَبَّرَ هَذِهِ الْفَاجِعَةَ؟»

فَقَالَ الْأَمِيرُ «فَاضِلٌ»: «لَا رَيْبَ أَنَّ الْمَلِكُ «مَرْمُوشٌ» الْحَقُودُ وَوَزِيرُهُ «أُنْبُوشٌ»، فَكِلَاهُمَا عَدُوٌّ لَنَا لِدَوْدٍ، وَهُمَا بِأَمْثَالِ هَذِهِ الدَّسَائِسِ أَخْبَرُ، وَيَتَدَبَّرِ هَذِهِ الْمَكَائِدِ أَبْصَرُ، وَعَلَى تَنْفِيزِهَا أَقْدَرُ!»

فَقَالَتْ «صَبِيحَةُ»: «لَوْ اسْتَطَاعَ «مَرْمُوشٌ» ذَلِكَ لَمَا تَوَانَى وَلَا قَصَرَ، وَلَا تَرَدَّدَ وَلَا تَأَخَّرَ، وَلَكِنَّهُ أَعْجَزُ عَنْ بُلُوغِ هَذِهِ الْغَايَةِ وَأَصْغَرُ، وَأَقْلُّ وَأَحْقَرُ. كَلَّا أَيُّهَا الْإِخْوَانِ، فَلَيْسَ

لَهُ فِي هَذِهِ النَّكْبَةِ شَأْنٌ، وَلَا طَاقَةَ لَهُ بِتَدْبِيرِهَا وَلَا يَدَانِ؛ بَلْ هِيَ مِخْنَةٌ غَيْرُ مُتَعَمَّدَةٍ وَلَا مَقْصُودَةٍ. وَلَوْلَا لُطْفُ اللَّهِ لَضَاعَ كُلُّ أَمَلٍ فِي انْفِرَاجِ الْأَزْمَةِ، وَكَشْفِ الْعُمَّةِ.»
 فَسَأَلَهَا الْأُمْرَاءُ مَدْهُوشِينَ: «كَيْفَ تَقُولِينَ؟ وَمَاذَا تَعْنِينَ؟ بِرَبِّكَ إِلَّا مَا أَفْصَحْتَ عَمَّا أَلْغَزْتَ، وَأَوْضَحْتَ لَنَا مَا أَبْهَمْتَ.»

(٥) السَّاحِرُ «عَوْسَجَةٌ»

فَقَالَتْ «صَبِيحَةَ»: «كَانَ «صَفْصَافَةٌ» فِي عَصْرِهِ سَاحِرَ الْهِنْدِ الْأَكْبَرَ، كَمَا أَسْلَفْتُ لَكُمْ الْقَوْلَ، فَلَمَّا مَاتَ ظَهَرَ سَاحِرٌ آخَرٌ لَا يَقُولُ عَن «صَفْصَافَةَ» قُدْرَةَ وَمَهَارَةَ، وَخِبْرَةَ بِالسَّحْرِ وَبِصَارَةَ. إِنَّهُ «عَوْسَجَةٌ» السَّاحِرُ. وَكَانَ أَبُوهُ وَزِيرَ الْمَلِكِ «صَلْدَمَ». وَكَانَ هَذَا الْمَلِكُ كَمَا تَعْلَمُونَ خَادِعًا مَاجِرًا، مُسْتَبِدًّا جَائِرًا، لَمْ يَتَوَرَّعْ عَنِ اغْتِيَالِ وَزِيرِهِ النَّاصِحِ الْأَمِينِ، بَعْدَ أَنْ أَخْلَصَ لَهُ النُّصْحَ وَأَصْفَاهُ الْوُدَّ. وَقَدْ شَهِدَ «عَوْسَجَةٌ» — وَهُوَ فِي مُقْتَبَلِ صِبَاهُ — كَيْفَ صَرَخَ «صَلْدَمُ» الْغَايِرُ أَبَاهُ، فَهَرَبَ «عَوْسَجَةٌ» إِلَى بِلَادِ التَّبَّتِ، وَقَدْ عَزَمَ عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْ قَاتِلِ أَبِيهِ، وَمَا زَالَ يُوَاصِلُ اللَّيْلَ بِالنَّهَارِ حَتَّى بَرَعَ فِي فُنُونِ السَّحْرِ، وَفَاقَ أَسَاتِذَتَهُ وَمُعَلِّمِيهِ، فَأَصْبَحَ بَعْدَ مَوْتِ «صَفْصَافَةَ» سَاحِرَ الْهِنْدِ الْأَوْحَدِ.»

(٦) بُوُقُ «عَوْسَجَةٌ»

فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ عَكَفَ عَلَى تَدْبِيرِ وَسِيلَةٍ لِلإِنْتِقَامِ مِنْ قَاتِلِ أَبِيهِ، فَلَبِثَ عَشْرِينَ عَامًا كَامِلَةً عَاكِفًا عَلَى صُنْعِ بُوُقِهِ الذَّهَبِيِّ الصَّغِيرِ، حَتَّى إِذَا أَنْمَهُ أَعَدَّ الْعُدَّةَ لِلسَّفَرِ إِلَى مَدِينَةِ «صَلْدَمَ» قَاتِلِ أَبِيهِ. وَمَا زَالَ يُوَاصِلُ سَيْرَهُ حَتَّى بَلَغَ مُنْتَصَفَ طَرِيقِهِ إِلَيْهِ. وَشَاءَتْ الْأَقْدَارُ أَنْ يَسْتَقَرَّ بِهِ الْمَقَامُ عَلَى سَاحِلِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ، فَيَسْتَمِعَ إِلَى جَمَاعَةٍ مِنَ التَّجَارِ قَدِمُوا مِنْ بِلَادِ عُدُوِّهِ، فَيَتَعَرَّفَ مِنْ حَدِيثِهِمْ مَصْرَعَ «صَلْدَمَ»، وَكَيْفَ زَلَّتْ قَدَمُهُ وَهُوَ يُطَارِدُ أَحَدَ الْغِزْلَانِ، فَهَوَى مِنْ قِمَّةِ الْجَبَلِ، وَتَنَاقَرَتْ أَشْلَاءُ جِسْمِهِ، وَاخْتَلَطَ لَحْمُهُ بِعَظْمِهِ. وَهَنَا زَالَ غَضَبُ «عَوْسَجَةَ» وَانْصَرَفَتْ نَفْسُهُ عَنِ الْإِنْتِقَامِ، وَخَشِيَ أَنْ يَقَعَ الْبُوُقُ الذَّهَبِيُّ الْمَسْحُورُ فِي يَدِ غَيْرِهِ، فَيُسْبِيءَ بِهِ — عَن غَيْرِ قَصْدٍ — إِلَى الْأَمِينِ، فَأَلْقَى بِهِ إِلَى الْبَحْرِ، وَكَرَّرَ إِلَى وَطَنِهِ رَاجِعًا، فَمَاتَ فِي طَرِيقِهِ.

(٧) خَصَائِصُ الْبُوقِ

فَسَأَلَهَا الْأَمْرَاءُ: «فَأَيُّ سِرٍّ أَوْدَعَهُ السَّاحِرُ فِي هَذَا الْبُوقِ الَّذِي أَعَدَّهُ لِيَنْتَقِمَ بِهِ مِنْ عَدُوِّهِ؟»
فَقَالَتْ «صَبِيحَةً»: «لَقَدْ أَوْدَعَ فِيهِ مِنْ ضُرُوبِ السَّحْرِ مَا لَا يَتَخَيَّلُهُ الْعَقْلُ، فَقَدْ
يَسَّرَ لِنَافِخِهِ مِنْ فُنُونِ الْإِنْتِقَامِ مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى الْبَالِ، وَأَتَّاحَ لَهُ الْقُدْرَةَ عَلَى النَّسْخِ
وَالْمَسْخِ وَالْفَسْخِ وَالرَّسْخِ.»

فَسَأَلَهَا الْأَمْرَاءُ مُتَحَيِّرِينَ: «أَفَصِحِي بِرَبِّكَ عَمَّا تَقُولِينَ، فَمَا نَحْنُ عَلَى فَهْمِ الْأَغَارِكِ
بِقَادِرِينَ: مَاذَا تَعْنِينَ بِالنَّسْخِ وَالْمَسْخِ وَالْفَسْخِ وَالرَّسْخِ؟»

فَقَالَتْ «صَبِيحَةً»: «فِي الْمُرْتَبَةِ الْأُولَى يَنْتَقِلُ الْآدَمِيُّ مِنْ صُورَتِهِ إِلَى صُورَةِ أَعْلَى
وَأَشْرَفِ. وَفِي الثَّانِيَةِ يَنْتَقِلُ إِلَى صُورَةِ إِحْدَى الْبِهَائِمِ. وَفِي الثَّلَاثَةِ يَنْتَقِلُ إِلَى صُورَةِ بَعْضِ
الْحَشَرَاتِ. وَفِي الرَّابِعَةِ يَتَحَوَّلُ نَبَاتًا أَوْ جَمَادًا.»

فَصَرَخَ الْأَمْرَاءُ مَذْهُوشِينَ: «وَكَيْفَ يَتِمُّ ذَلِكَ لِمَنْ يَنْفُخُ فِي الْبُوقِ؟»
فَقَالَتْ «صَبِيحَةً»: «حَسْبُهُ أَنْ يَسْتَحْضِرَ فِي ذَهْنِهِ الصُّورَةَ الَّتِي يُرِيدُ أَنْ يُحَوَّلَ
إِلَيْهَا مَنْ يَشَاءُ، أَوْ يَذْكُرَ عَلَى لِسَانِهِ اسْمَ حَيَوَانَ أَوْ نَبَاتٍ أَوْ مَعْدِنٍ — حَسِيسًا كَانَ
أَوْ حَقِيرًا — فَلَا تَنْقُضِي لِحَطَّاتٍ قَلِيلَةً بَعْدَ أَنْ يَنْفُخَ فِي الْبُوقِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، حَتَّى يَبْلُغَ
وَالنَّافِخُ مُرَادُهُ، وَيَتِمُّ لَهُ مَا أَرَادَهُ.»

فَقَالَ «إِقْبَالٌ»: «لَقَدْ أَخْبَرْتَنَا أَنَّ «عَوْسَجَةَ» قَذَفَ الْبُوقَ فِي الْبَحْرِ، فَمَاذَا حَدَثَ بَعْدَ
ذَلِكَ؟»

فَقَالَتْ «صَبِيحَةً»: «بَلَعَتْهُ سَمَكَةٌ، وَجَاءَ صَيَّادٌ فَاصْطَادَهَا. وَمَرَّ بِالصِّيَّادِ نَسْرٌ،
فَانْتَهَزَ مِنَ الصِّيَّادِ غَفْلَةً، فَخَطَفَ السَّمَكَةَ، ثُمَّ طَارَ بِهَا إِلَى قِمَّةِ الْجَبَلِ، فَرَأَى ثَلَّةً مِنْ
النَّاسِ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْ عَشِهِ، فَعَادَ بِهَا أَذْرَاجَهُ، وَاسْتَقَرَّ عَلَى شَجَرَةٍ عَالِيَةٍ فِي حَدِيقَةِ
الْمَلِكِ، فَأَكَلَ السَّمَكَةَ وَتَرَكَ الْبُوقَ، وَلَمْ يَلْبَثِ الْبُوقُ أَنْ سَقَطَ إِلَى الْأَرْضِ. وَجَاءَ وَلَدُ
الْبُسْتَانِيِّ فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ فَرَأَى الْبُوقَ الذَّهَبِيَّ الصَّغِيرَ، فَأَعْجَبَ بِمَنْظَرِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ —
عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ — ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فِإِذَا كُلُّ مَنْ بِالْمَدِينَةِ تَمَائِيلُ مِنَ النُّحَاسِ.»
فَسَأَلْتُهَا «رَائِعَةٌ»: «وَلِمَاذَا تَحَوَّلُوا نُحَاسًا وَلَمْ يَتَحَوَّلُوا شَيْئًا آخَرَ؟»

فَقَالَتْ «صَبِيحَةُ»: «كَانَ وَلَدُ الْبُسْتَانِيِّ يَحْسَبُ الْبُوقَ الذَّهَبِيَّ بُوقًا مِّنَ النَّحَاسِ، فَاتَّجَهَ ذَهْنُهُ إِلَى هَذَا الْمَعْدِنِ.»

فَقَالَ «فَاضِلٌ»: «الآنَ ظَهَرَ أَنَّ «مَرْمُوشًا» لَا يَدَّ لَهُ فِي هَذِهِ النَّكْبَةِ.»

فَقَالَتْ «صَبِيحَةُ»: «بَلْ كَانَ لَهُ يَدٌ فِي تَأْمِينِ الْمَدِينَةِ وَسَلَامَتِهَا.»

فَقَالَتْ «وَادِعَةُ»: «وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟»

فَقَالَتْ «صَبِيحَةُ»: «لَوْلَا قُدُومُ حَيْشِهِ اللَّحْبِ لِعَزْوِ الْمَدِينَةِ لَمَا فَكَّرَ أَحَدٌ فِي إِغْلَاقِ

أَبْوَابِهَا، لِرَدِّ عُدْوَانِ مَنْ يُفَكِّرُ فِي عَزْوِهَا وَأَنْتِهَابِ كُنُوزِهَا، فَقَدْ حَاوَلَ «مَرْمُوشٌ» أَنْ

يَدْخُلَ الْمَدِينَةَ فَعَجَزَ عَنِ ذَلِكَ وَرَجَعَ خَائِبًا مَدْحُورًا. وَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ غَيْرَ الْأَمِيرِ «إِقْبَالِ»

عَلَى اقْتِحَامِ سُورِهَا الْعَالِي، وَفَتْحِ بَابِهَا الْمُنِيْعِ.»

فَقَالَتْ «رَائِعَةُ»: «رُبَّ ضَارَّةٍ نَافِعَةٌ.»

وَقَالَ «إِقْبَالٌ»: «أَلَا سَبِيلٌ إِلَى تَخْلِيصِ الْمَدِينَةِ مِنْ مَحْنَتِهَا؟ وَتَفْرِيجِ كُرْبَتَيْهَا؟»

فَقَالَتْ «صَبِيحَةُ»: «بَلَى، وَقَدْ اجْتَمَعَتِ الْأَسْبَابُ، وَحَانَتِ الْفُرْصَةُ لِإِنْجَازِ هَذَا الْمُهْمِّ

الْعَظِيمِ.»

فَقَالَ «إِقْبَالٌ»: «وَكَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى ذَلِكَ؟»

فَقَالَتْ «صَبِيحَةُ»: «لَمْ يَبْقَ عَلَى كَشْفِ هَذِهِ الْمِحْنَةِ غَيْرُ سَاعَاتٍ وَدَقَائِقَ، ثُمَّ يَنْجَلِي

لِأَعْيُنِكُمْ صِدْقٌ مَا سَمِعْتُمُوهُ مِنْ حَقَائِقَ.»

وَأَرَادَ الْأَمْرَاءُ أَنْ يَتِمَادُوا فِي أَسْئَلَتِهِمْ، لَوْلَا أَنَّ سَنَةً مِّنَ النَّوْمِ طَافَتْ بِأَجْفَانِهِمْ،

فَأَسْلَمَتْهُمْ إِلَى الرُّقَادِ.

فَلَمَّا طَلَعَ الْفَجْرُ اسْتَيْقَظَ الْأَمِيرُ «إِقْبَالُ» فَجَالَ فِي جَنَابَاتِ الْقَصْرِ، وَقَدْ شَغَلَهُ

التَّفَكُّيرُ فِي إِنْقَادِ الْمَدِينَةِ عَنْ كُلِّ مَا يَحْوِيهِ مِنْ نَفَائِسٍ وَتُحْفٍ، فَمَشَى إِلَى حَدِيقَةِ الْقَصْرِ،

فَرَأَاهَا قَدْ أَنْصَلَتْ بِحَدِيقَةِ الْقَصْرِ الْمَلِكِيِّ فَوَاصَلَ سَيْرَهُ قَلِيلًا، وَحَانَتْ مِنْهُ التَّفَاتَةُ، فَرَأَى

الْبُوقَ الذَّهَبِيَّ الصَّغِيرَ، فَالتَّقَطَهُ وَعَادَ بِهِ أَدْرَاجَهُ، لِيُحَدِّثَ أَصْحَابَهُ بِمَا رَأَاهُ.

(٨) خَاتِمَةُ الْقِصَّةِ

وَلَمَّا اقْتَرَبَ مِنْ حُجْرَتِهِمْ رَأَى بُوقَ «عَوْسَجَةَ» يَنْجَذِبُ إِلَى شَفْتَيْهِ؛ فَلَمْ يَتِمَالِكْ أَنْ يَنْفُخَ

فِيهِ، وَهُوَ مَشْغُولُ الْبَالِ بِرَدِّ الْحَيَاةِ إِلَى التَّمَاثِيلِ الْجَامِدَةِ، فَمَا إِذْ أَتَمَّ نَفْحَهُ مَرَّاتٍ ثَلَاثًا

حَتَّى تَحَقَّقَتِ الْأَمَالَ عَلَى يَدَيْهِ، وَدَبَّتِ الْحَرَكَةُ فِي تَمَائِيلِ النُّحَاسِ، وَعَادَ إِلَى الْحَيَاةِ كُلُّ
 مَا فِي الْمَدِينَةِ مِنْ حَيَوَانٍ وَطَيْرٍ وَنَاسٍ. وَاسْتَيْقَظَ الْأُمَرَاءُ الثَّلَاثَةُ مِنْ نَوْمِهِمْ مَذْهُوشِينَ.
 فَقَالَتِ الْأَمِيرَةُ «رَائِعَةٌ» لِلْأَمِيرِينَ «إِقْبَالِ» و«وَادِعَةٌ»: «مَا أَشْبَهَ هَذَا الصَّوْتُ بِمَا
 سَمِعْتَهُ مُنْذُ عَامٍ وَنِصْفِ عَامٍ.»

لَقَدْ صَدَقَتْ «رَائِعَةٌ». وَلَكِنْ شَتَّانَ بَيْنَ هَذَا وَذَلِكَ، شَتَّانَ بَيْنَ الصَّوْتَيْنِ: صَوْتِ الْيَوْمِ
 وَصَوْتِ الْأَمْسِ. هَذَا يَجْلِبُ السَّعَادَةَ وَذَلِكَ يَجْلِبُ النُّحْسَ، هَذَا يُعِيدُ الْحَيَاةَ وَذَلِكَ يَدْفَعُ
 إِلَى الرَّمْسِ (القبر)!

وَهَمَّتْ «رَائِعَةٌ» أَنْ تُسْرِعَ إِلَى لِقَاءِ أَبِيهَا، فَرَأَتْهُ مَائِثًا أَمَامَهَا قَبْلَ أَنْ تَنْقُلَ قَدَمًا،
 فَقَدْ أَحْضَرَتْهُ الْجَنِّيَّةُ «صَبِيحَةٌ» إِلَى الْقَصْرِ السَّعِيدِ قَبْلَ أَنْ يَنْفُخَ الْأَمِيرُ فِي الْبُوقِ
 بِالْحَضَاتِ، فَلَمَّا عَادَتْ إِلَيْهِ الْحَيَاةَ سَمِعَ ابْنَيْهِ فِي الْحُجْرَةِ التَّالِيَةِ، فَاثْتَقَلَ إِلَيْهِمَا، وَعَقَدَتْ
 دَهْشَةَ الْفَرْحَةِ أَلْسِنَتَهُمْ جَمِيعًا؛ فَبَكَوْا فِتْرَةً مِنْ فَرْطِ السُّرُورِ. وَكَانَتْ سَاعَةً بِهِجَةً
 يَنْضَاعُلُ أَمَامَهَا الْعُمْرُ كُلُّهُ. وَأَقْبَلَ الْأَمِيرَانِ يَبْسُطَانِ لِلْمَلِكِ تَفْصِيلَ مَا حَدَثَ. وَمَا إِنْ
 بَلَّغُوا مِنَ الْقِصَّةِ نَهَائِيَّتَهَا حَتَّى رَأَوْا الْمَلِكَ «عَاصِمًا» وَالِدَ الْأَمِيرِينَ «وَادِعَةٌ» و«إِقْبَالِ»
 وَاقِفًا أَمَامَهُمَا. وَمَا إِنْ رَأَاهُ وَوَلَدَاهُ، حَتَّى أَسْرَعَا يُرْحَبَانِ بِهِ وَيُعَانِقَانِهِ، وَيَسْأَلَانِهِ: كَيْفَ
 اهْتَدَى إِلَى مَكَانِهِمَا؟

فَأَسْرَعَتْ «صَبِيحَةٌ» إِلَى إِجَابَتِهِمَا، وَقَالَتْ لَهُمَا: «لَقَدْ رَأَيْتُ أَنَّ الْبَهْجَةَ لَا تَتِمُّ إِلَّا
 بِحُضُورِ الْمَلِكَيْنِ، لِئِشْهَادِ زَوْجِ الْأَمِيرِينَ بِالْأَمِيرَتَيْنِ.»
 وَهَكَذَا أُقِيمَتِ الْأَفْرَاحُ، وَابْتَهَجَ الشَّعْبُ كُلُّهُ أَيَّمَا ابْتِهَاجٍ.

وَكَانَ يَجْرُ الْمَرْكَبَةُ الْمَلَكِيَّةُ جَوَادَانِ كَبِيرَانِ، لَا نَظِيرَ لَهُمَا فِي الْخَيْلِ رَوْعَةً وَفَخَامَةً،
 وَحُسْنًا وَقِسَامَةً، أَحْضَرَتْهُمَا الْبِبْعَاءُ لِيَتِمَّ بِهِمَا الْبَهْجَةُ وَالرُّوَاءُ. وَلَا تَسْلُ عَنْ دَهْشَةِ
 الْمَلِكَيْنِ وَالْأُمَرَاءِ حِينَ أَحْبَرْتَهُمَا «صَبِيحَةٌ» أَنَّ الْجَوَادَيْنِ اللَّذَيْنِ أَحْضَرْتَهُمَا لِيَجْرَا مَرْكَبَةُ
 الزَّفَافِ هُمَا الْمَلِكُ «مَرْمُوشٌ» وَوَزِيرُهُ «أَنْبُوشٌ» اللَّذَانِ أَسْرَفَا فِي إِسَاءَتِهِمَا، وَتَمَادِيَا فِي
 اعْتِدَائِهِمَا، وَتَفَنَّنَا فِي أَدْبِيَّةِ حَيْرَانِهِمَا، وَلَمْ يَتَوَانِيَا عَنْ إِلْحَاقِ الْأَدَى بِالرِّيَّةِ، بَعْدَ أَنْ
 اسْتَعْبَدَا ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ الْمَمَالِكِ الْهِنْدِيَّةِ.